رواية

حـربٌ ونسـاءٌ

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠٢٠/١٥٦٩١

بطاقة فهرسة

السامرائي ، ساجد

حربٌ ونساءٌ: رواية/ ساجد السامرائي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٠

٢٠٨ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٣-٢٢٣-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

رضا الحَمَد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

رواية

حربٌ ونساءٌ

ساجد السامرائي

إهداء

إليكِ يا أمي، وقد صرتِ تحت الثرى .. أهدي لكِ روايتي مِن الدنيا التي نعاني بها بعدكِ ظلمَ البلادِ والعبادِ، لكن السلوى أن نلقاكِ هناك على بابِ الجنة.

تنويه ..

الأحداث والشخصيات في الرواية مِن وحي خيال الكاتب، وليس لها علاقة بالواقع، وإن كان ثمة أي تشابه أو اتفاق ، فإنه مِن قبيل الصدفة.

ساجد السامرائي

الفصل الأول

ارتفعتْ في الأجواءِ بأحد أحياء العاصمة بغداد صرخاتُ أختين تُعلِن عن فجيعةٍ حلَّتْ بهما، فأسرع معظمُ مَن في الجوار حيث مصدر تلك الصرخاتِ التي انطلقتْ مِن أحد بيوتِ هذا الحي المتآلف.. سأل المتزاحمون والمتزاحمات أمام البيت بعضهم البعض في حيرةٍ عن سبب الصراخ، بينما خرجتْ لهم فتاةٌ وهي تخمشُ وجهها وتصكُّ صدرها، وخلفها أختها تصنعُ صنيعها.. ردَّدتْ الفتاةُ في ألمٍ أبكى الجميع: (ماتت أمنا.. ماتت أمنا.. يا ويلي!.. يا ويلي!)

ماتت الأم التي كانت بمثابةِ الصديقة والأخت وكل الحياة للفتاة زينب، تلك الابنة المدللة آخر العنقود، التي طالما احتضنت أمها لتبكي وتضحك على كتفها، وطالما طلبتْ منها أمها أن تتزوج لتراها مستقرة هانئة في بيت الزوجية قبل أن تموت، لكنها أبت إلا أن تظلَّ ترافقها وتخدمها في أيام مرضها، فتلك أيامها السعيدة التي لا يعلوها سعادة، لكنَّ الأيام الجميلة قبل الفراق تمضي مسرعة دون أن نشعر بجمالها، ثم نجلس ونذرف الدموع ندما عليها.

وإنَّ زينب قد صارت دائما بعد ذلك تتذكر في كلِّ حين كلماتِ أمها، وعناقها، وعطرها الممزوج برائحة القرنفل ونبات السعد، وما له مِن نشوةٍ تدخل إلى القلب والعقل مباشرةً، وكم أحبت أن تقضي وقتها بكل مكانٍ كان أثيرا لدى أمها لتستنشق عطر مواطىء قدميها، وتنام في فراشها، وتصلي وتركع على سجادة صلاتها، وتبقى ساجدة مع الدعاء والرجاء والتسبيح لله تعالى، فتغيب فيه لتتحسَّس وجه أمها يلامس شغاف نفسها، وما إن ترفع رأسها حتى ترى دموع عينيها تفيض لتبلل موضع سجودها وتضرعها إلى الخالق الرحيم.

وظلَّت عصر كلِّ يوم تحرص على الجلوس في نفس مكان جلوس أمها المتوفاة، وظلَّت تحتفظ بملابسها، ثيابها وعباءتها، وتلبسها أحيانا.. كانت الملابسُ تُشعِرها بأنَّ أمها لا تزال على قيد الحياة، وأنَّ روحها تسكن في كلِّ زاويةٍ مِن زوايا المنزل الكبير.. لقد كانت متعلقة بأمها أشدَّ التعلق، وسبب ذلك على الأغلب أنها في صغرها كانت دائمةَ الشجار مع إخوتها وأقرانها، فكانت أمها هي صخرة الدفاع عنها، تخبئها دوما مِن سياط الخصوم حين يحتدم الصراع في كثيرٍ مِن مواقف الحياة التي تقف خلالها زينب صلبة يابسة العقل متحجرة الرأيِ، فقد كانت في صباها وحياةِ أمها مِن النوعِ الذي لا يحيدُ في سهولةٍ قدر أنملة عما تعتقد وتريد.

أما أختها أسماء، فقد كانت أمام انطفاء شعلة حياة الأم أقل تأثرا، ربما لأنها متزوجةٌ، ومنشغلةٌ بتربية أولادها الأربعة، وبالها مشغول دائما بزوجها الحبيب الذي يمكث غالب وقته في جبهات الحروب، والمعاركُ هناك متتابعةٌ طاحنةٌ لا ترحم.

قالت زينب لأسماء:

– ماذا سنقول لأخينا الكبير علي عندما يعود مِن الحرب في إجازته بعد غياب طويل واشتياق لوالدته؟.. إنه لا يدخل البيت إلا ويصيح بأعلى صوته: (أمي أمي)

فقالت أسماء وكأنها تحدث نفسها:

– وكان يناديها دائما بمرح طفولي كأنه لم يكبر.. لكنه الآن قد كبر وصار يخوض حروبًا.. ولقد كبرنا كلنا حتى إنَّ أمنا ماتت.. يا حسرتي!

وعادت زينب فسألت في ألمٍ ولوعةٍ:

– وماذا سنقول لأحمد وهو الصغير المدلل؟.. لعله يأتي قبل علي.. حيث يوجد علي في الخطوط الأمامية للجبهة

– اللهم رحمتك

ونامت أسماء بعد أن سمعت الأخبار، وعرفت أنَّ هناك معركة شديدة في الشمال حيث زوجها وأخيها علي، أما أحمد فهو في أغلب الظن بعيد عن المعارك إلى حد ما، وبقيت زينب كعادتها كل ليلة تتذكر والدتها، وتبكي كلَّ صباح عند رؤيتها قدح الشاي الذي كان لأمها.

وعاد الحديث مجددا عن ردة فعل الأخوين اللذين سيعودان مِن ساحة المعركة فلا يجدان أمهما وقرة عينيهما، وقد انشغل بال أسماء لهذه اللحظة الصادمة، وخاصة أنَّ أحمد متعلق بأمه كثيرا وكثيرا.

جلست تعد طعام الفطور لأطفالها، وتفكر بطريقة ملائمة لامتصاص الصدمة، هل تبعث لهما رسائل عاجلة تخبرهما بشدة مرض أمهما ليعودا؟.. هل تبعث لهما شيئا يهيئهما لقبول الصدمة؟ وبقيت ساهمة لم تأكل، ومثلها بالطبع وأكثر كانت زينب، وكالعادة شربتا الشاي في حديقة المنزل، حيث السحاب ينذر بغيثٍ، وتتجمع الغيومُ، كأنَّ السماء تشاركهما الحزن.

ودُقَّ جرسُ الباب، وإذا بالجارة أم عبد الله تحمل بيديها صفيحة مِن التمر كانت قد اقتطفته مِن نخلتهم المزروعة بين المنزلين، والحقيقة أنها جاءت إلى زينب وأسماء مواسيةً لهما حيث كانت أمهما أطيب وأحب صديقاتها، لكن الآن لم يبقَ في البيتِ مع زينب سوى أختها أسماء المتزوجة مِن رجل طيب، حيث تعودت أسماء أن تأتي يوميا للمبيت لتؤنس وحشة أختها، ولأنَّ زوج أسماء عسكري يتأخر خارج البيت لأسابيع وأشهر، فإنَّ أسماء قرَّرت أن تبقى مع زينب إلى أن يعود علي وأحمد مِن جبهات القتال.

وفي منتصف ليلة باردة لا قمر فيها انطرق الباب بهدوء، ثم تبعه طرقٌ بصوتٍ عالٍ ثم صياحٌ وهما متسمرتان أمام الباب خائفتان يتساءلان: (مَن وراء الباب؟.. هل هو علي أم أحمد؟

تقدمت أسماء قليلا نحو الباب وقد استجمعت بعضا مِن الشجاعة، وصاحت: (مَن؟).. فصاح الطارق بأعلى صوته: (أنا زوجك أيتها الجبانة).. قالها وضحك ضحكة مجلجلة، فتنفست أسماء الصعداء بعد أنْ سمعته، وتمتمت بصوت خفيض: (الحمد لله).

وأسرعتْ ففتحتْ الباب، وإذا بزوجها يحضنها ويقبلها، لكنه سرعان ما ترك يديه حين انتبه إلى أنها وزينب يتوشَّحان الأسود القاتم.

وإنَّ شدة الاشتياق للزوجة جعلته في البداية لا يدرك لون ملابسها، حيث إنه غادرها لأكثر مِن أربعين يوما.. تلعثم ولم ينبس ببنت شفة ولسان حاله يقول له إنَّ أحد أخويها قد سقط شهيدا في المعارك التي دارت رحاها مؤخرا، وإنه ليحبها لدرجة الأخوة الحقيقية، ويعتبرهما أخوين له لم تنجبهما أمه، وتصله بهما صلاتٌ متينةٌ من القرابة والصداقة والطفولة.. أحنى رأسه إلى الأرض ليعرف منهما المتوفَّى.. قال بعد شيء مِن التردد، وقد اعتلاه الكرب مبكرا:

– مَن مات يا أسماء؟

نزلت دموع أسماء متدفقة، بينما شرعت زينب تصدم رأسها بالحائط.

– تكلمي يا أسماء مَن مات؟

وبدأ الدمع ينز مِن عينيه، ثم تكلمت زينب:

– أمي ماتت منذ أسبوعين.

وقع الأمر في نفسه موقعا شديدا مؤثرا، ثم استعاد رباطة جأشه المعهودة وقال بتسليم ورضا:

– إنا لله وإنا إليه راجعون.

وجلس يواسيهما حتى مطلع الفجر، ثم أخبر زوجته أنه يريد تقبيل أولاده، فجاء صوتها متحشرجا:

– إنهم نائمون لا توقظهم.

لم يصبر الرجل، فدخل وقبَّلهم وشمَّ عطر رؤوسهم، ثم أخذته غفوة في أحضانهم، فهو لم يذق طعم النوم لأكثر من ثماني وأربعين ساعة مضت.. نام بملابسه العسكرية التي يملؤها التراب ورائحة البارود وبقايا دماء أصدقائه الشهداء، ومكثت أسماء عند أقدامه تنتظر يقظته مِن سباته، فهو زوجها وحبيبها ووالد أطفالها، وكانت متشوقة لاحتضانه والاستماع إلى كلماته وبطولاته وأية أخبار لديه عن الأخوين.

واستيقظ بعد ساعاتٍ مِن النوم، وقد شارف وقت الظهيرة، فأحسَّ بوقع أقدام أولاده قريبا منه، فانجرف ناحيتهم يضمهم إلى صدره وقلبه، ثم انفرد جانبا بأسماء، وقال لها:

– بصفتي عسكري أرى الموت كلَّ دقيقة حولي.. ورغم الألم يكون عليَّ التأقلم مع أي وضع جديد.. أقول لكِ يجب أن تتأقلمي مع الوضع الجديد.

– وما هو الوضع الجديد؟

– زينب لم يبقَ لها أحد غيرك، أخواكِ الله أعلم بهما متى سيعودان.. لا تنسي أننا في حرب.. سنأخذ زينب إلى بيتنا لتعيش معنا.. مِن المستحيل أن نتركها وحدها هنا.

بقيتْ زوجته أسماء واجمة لبرهةٍ ثم سألته:

– صحيح لم تقل لي كيف عرفت أني هنا في بيت أهلي؟

– عندما ذهبتُ إلى بيتنا ورأيت الأضواء خافتة.. طرقت الباب فلم يفتح أحد.. فأدركتُ أنكِ هنا في بيت أهلك وكأني شممت رائحة عطرك في

الطريق إلى هنا.. وقد كان قلبي دليلي وقلب العاشق لا يخذله.. فأنتِ عشقي الأبدي.

قالها مبتسما لها، فابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم سألته:

- كيف سنجعل زينب توافق على أن تأتي لتعيش معنا وهي عزيزةُ نفس؟

- أنا مَن سيفاتحها في الموضوع.

- افعل ما تراه مناسبا.

وأثَّرت فيه كلماتها تأثيرا عميقا، ثم راحت تبكي، فأشفق عليها وعلى دموعها وقال:

- رحم الله أمك.. كانت تصلي الخمس لأوقاتها ولا يفتر لسانها عن ذكر الله.

وعلى طعام الغداء جلست زينب معهما، ولكن روحها كانت هناك تسكن بعيدا، فقال زوج أسماء مواسيا لها:

- هذه سنة الحياة يا زينب.. وكلنا سنموت يوما ما.. والحياة لا تتوقف بعد وفاة أحد الوالدين.. وخذيني مثلا.. مات أبواي وأنا صغير حتى لا أكاد أتذكرهما.. وقد عشتُ يتيما وعانيتُ مِن ظلم الحياة وقسوتها.. لكني عشت.. وحاليا يموت أصدقائي كل يوم في الحرب وأدفنهم بيدي.. يا زينب أنت مؤمنة وتعرفين أنَّ الموت مع أنه مؤلم فهو حق.. يا زينب الموت ليس نهاية العالم.

كان زوج أسماء يسترسل بكلمات تحفيزية ليسلو عنها، وهو جيد في الإلقاء، حيث إنه كان فنانا في الحياة المدنية قبل نشوب هذه الحرب اللعينة.. قاطعته زينب:

- ولكن يا صهري.. أنتَ رجل والرجال قلوبهم قوية ومشاعرهم أقوى.. ولديك زوجة وأطفال تعيش مِن أجلهم.. وقد ملأ الأمل وملأت الحياة قلوبكم.. أما أنا فلستُ كذلك.. أصبحت يتيمة الأبوين وحديثة العهد بوفاة أمي التي كانت كل حياتي.. وتبددت آمالي وتحطمت.. لم أكن أظنُّ أنَّ الموت سيأتي بغتةً ليأخذ أمي الحنون.

ظلَّت تتكلم وهي محملة بالهموم الثقال، ثم أكملت تستطرد والدموع تملأ جفنيها:

- أتذكر كيف كنتُ أنام في حضنها في فصل الشتاء.. كان حضنها أدفأ مكان في هذا الكون.. وبينما ينام أخوتي متفرقين كنتُ فرحة مغتبطة بحنان وعطف أمي حيث لا حنان بعدها.. وكنتُ أستيقظ مِن نومي فجأة لأرى أمي وقد استيقظتْ لتغطي إخوتي خوفا عليهم من البرد ثم تعود لاحتضاني.. وبفراشها كنتُ أشعر وكأني أنام على فراش مِن الحرير والسندس.. ماتت أمي التي كانت تعمل خياطة مِن أجل أن تربينا أحسن تربية.. وكانت تضن على نفسها مِن أجل إسعادنا كي لا نشعر بالفقر اللعين.. أمي التي كانت تشتري لنا الخبز وتقطعه مِن حق دوائها.. لقد كانت نعيمي الوحيد في حياتي.. أنا الآن منكسرة وضعيفة وقليلة الحيلة.. أنا الآن وحيدة ضائعة في هذا العالم القاسي.

واستحكمت الأشجان وهاجت الأحزان.. وقال لها الصهر:

– أنا وأختك دائما بجانبكِ.. سنعوضك خيرا.. ولا تنسيا أخويكِ.

– تقول أخَواي؟!.. أنا لا أعلم عنهما وعن أرضهما الآن شيئا.. وهل سيعودان أم لا؟

– لا تقولي ذلك.. تفاءلي يا زينب.

– كيف أتفاءل وأنا واحدةٌ مِن النساء المقهورات في هذا البلد؟!.. نودع رجالنا ونحن باكيات ليذهبوا في حربٍ تناديهم مثل النداهة.. فيذهبون وغالبا لا يرجعون.

فنظر إلى زوجته أسماء بجواره، وقال لزينب بكلِّ معاني الرحمة والنبل:

– استعدي لتأتي معنا وتعيشي معززة مكرمة في بيت أختك.. تأكلين مما نأكل وتلبسين مما نلبس.. فأنتِ شقيقة زوجتي وبمثابة أختي.

فتهلَّل وجهها عندما سمعت هذا الكلام، ومع ذلك قاطعته مباشرة:

– لا والله.. لن أبرح مكان أمي وموضع جلوسها.. هل تصدقني إن قلتُ لكَ إني أسمع صوت يديها وهي تعمل بالخياطة.. هل تصدق أني أسمع ضحكتها الرقراقة.. لقد سمعتها صباح هذا اليوم وهي تقول لي يازينب افتحي الباب عاد أخواكِ. وإني أشمُّ رائحتها.. صدى صوتها يتردد في كل زاوية مِن زوايا المنزل.. إني أعيش معها هنا.. آكل معها.. أشرب معها.. أنام معها في فراشها وعلى وسادتها.. ما زلتُ أستدفىء بحضنها.. ولقد كانت تدعو لنا بأن نعيش في غنى ويسر وهي بآخر رمق.

وغمزت أسماء لزوجها وسحبته إلى غرفة جانبية، ثم قالت له:

– إنَّ زينت صارت تهلوس وإني أخاف عليها وعلى عقلها.. وهذا الإحساس الغريب إحساس يأس.. يجب أن نأخذها إلى أحد المشايخ ليرقيها عسى أن تعود إلى رشدها.

فصاح بها الزوج:

– لا تفتحي هذا الموضوع نهائيا أبدا بعد ذلك.. لا معي ولا معها.

– هل لأنكَ لا تعتقد بالمشايخ؟

– الله كفيل بها يا أسماء وهو أرحم الراحمين.

– الضرورات تبيح المحظورات يا زوجي العزيز.

– لكني أقول لا تفاتحيها بالموضوع كي لا تسوء حالتها أكثر.. وبإذن الله قريبا جدا سنقلب صفحة جديدة وكأن شيئا لم يكن.

– لا أعتقد.

فقال وهو يبتسم ابتسامته المعهودة التي لا تفارقه:

– ثقي بي.. أنا مَن سيخرجها مِن حالة الضياع والكآبة والحطام الذي تعيش فيه.. يا أسماء لو كنتِ شاركتِ بالمعارك ورأيتِ كيف أنَّ الله يلطف بعباده بعد أن تبلغ القلوب الحناجر وبعد أن ييأس الجنود مِن كل شيء لعلمت معنى قولي وثقتي بالله.. ففي لحظة يأتي الفرج مِن الله عز وجل.. ثقي بالله دائما واصبري صبرا جميلا.

– حسنا يازوجي.. وإنَّ موقفك هذا المشرف ينم عن أخلاقك أخلاق الفرسان.. وعن رجولة وشهامة قلَّ نظيرها.

– لا تنسي أنَّ أباك رحمه الله كان يعاملني كواحد مِن أولاده عندما كنت أعمل لديه.. كان والله بمثابة والدي.

وفي يوم تالٍ طُرِق الباب، وإذا بنساء الحي قد جئن للمواساة، وقد ظهر وكأنهن اتفقنَ على إنهاء حالة الحزن والكآبة الشديدة لدى زينب بإيعازٍ مِن أحدهم.

أحضرت أسماء الشاي، وجلسن يذكرن الله واليوم الآخر، وأنَّ العمل الصالح هو أساس بقاء وفناء الإنسان، وأنَّ هذه الدنيا لا تدوم لأحد، ويجب أن نحتسب لله في كل شيء، وإنا لله وإنا اليه راجعون.

وبعد خروجهن جلس زوج أسماء مع أطفاله في حديقة الدار، وكان الجو بارد نوعا ما والسماء ملبدة بالغيوم ورائحة المطر تلوح في الأفق، وبعد أن أرخى الليل سدوله، ثم جاءت أسماء بطعام العشاء لزوجها طلَّت زينب مِن باب المطبخ وهي تحمل معها صحن فواكه، فجلست تأكل معهما باستحياء في البداية، ثم ما لبثت أن صارت تأكل بنهم كأنها لم تذق الطعام منذ سنوات.

وظهر الاستغراب على وجه أسماء، فأومأ لها زوجها ألا تتعجب، وحمدت زينب الله في نفسها، ثم دلفت إلى المطبخ لتجلب الشاي برائحته الزكية التي وصلت إلى سابع جار.

وهمس الزوج بإذن زوجته أسماء بأنَّ الدرس الأول قد نجح، فهو مَن طلب مِن نساء الحي أن يأتين لإلقاء هذا الدرس الضروري لزينب.

وبقي الزوج بعد ذلك ينفث دخان سيجارته بعد أن نام أطفاله جميعهم، وإنه لينشد الآن الهدوء والسكينة والراحة التي فقدها منذ أكثر من أربعين يوما في ساحات الحروب حيث صوت طلقات الرصاص وقذائف المدفعية وقصف الدبابات.. ولِمَ لا ينعم بساعة مِن الهدوء في هذه الليلة الهادئة؟!

وذهبت أسماء لتنام مع زينب كعادتها وهي تقول في نفسها: (لم يعد زوجي كالسابق.. ماذا دهاه؟! هل مِن المعقول أن يكون قد تزوج مِن امرأة تسكن بالقرب مِن الجبهة الشمالية؟ أو يكون قد عشق واحدة منهن؟.. يقال إنهن شقراوات ذوات عيون ملونة وقوام رشيق).

وانتبهت زينب لأختها فسألتها:

- أين سرحتِ بأفكارك يا أسماء؟

- لا شيء مهم.

- كان يجب عليكِ أن تنامي عند زوجك.. فهو أحق بكِ مني.

ضحكت أسماء بصوت خافت قائلة:

- لن أتركك.

- أنا الآن أفضل بكثير مِن السابق والفضل يعود لزوجك.. اشكريه نيابة عني.. واخرجي إليه الآن يا أسماء.

وخرجت أسماء إلى الحديقة، وإذا بزوجها قد نام، فتقدمت وتحسَّستْ يديه، ولعبت ببقايا شعره، ولكنه لم يشعر بها مِن شدة التعب والإرهاق، وإنه تعب السنين في الحرب، تعب وقلق وسهر وهجر، وقد خالط كلُّ ذلك جسم رجل ثلاثيني العمر.. صحا مِن غفوته وتبسَّم بوجهها وتهلل وجهه فرحا.. قالت له:

- هيا يا عزيزي لتنام على السرير أفضل منِ هنا.

وأخذته معها كما تأخذ الأم ابنها لمكان نومه، وما إن دخلا الغرفة حتى احتضنته وهمست:

- لماذا أصبحت هكذا؟.. هل عرفت امرأة غيري؟

- هل جننتِ يا امرأة؟!

- نعم المرأة تجن إذا فقدت الاهتمام مِن زوجها.

- ماذا تقولين يا مجنونة؟.. أنا مشتاق جدا وشعوري لا يوصف وقلبي دائما يفيض حبا ومودة لكِ.. إني انتظرك كالطفل الذي مُنعت عنه قطعة الحلوى التي يعشقها.. ولكني رجل محارب ذو شهامة.. ولا أسمح لنفسي أن آخذك مِن أختك هذه المسكينة اليتيمة حتى لا تشعر بالوحدة .

- أنتَ رجل نبيل وطيب ياحبيبي.

- وأنتِ جميلة ومثيرة جدا يا حبيبتي.

وأصبح الصباح، وإذا بزينب تصحو مبكرة، فتجهز الفطور، وتضاحك الأطفال، ثم جلسوا جميعا حول المائدة، وقد بدأ التغير على وجه زينب،

وأسماء مرتاحة لما قام به زوجها الطيب تجاه أختها.. قالت أسماء برحابة صدر:

– ماذا تريدون أن أجهز لكم لطعام الغداء؟

– دعينا أولا نشبع مِن فطور زينب.

فضحكت أسماء، وضحك الجميع، ومضت خمسة أيام وهم على هذه الحالة، ثم جلسوا عصرا في الحديقة تحت شجرة التوت العملاقة.. قال زوج أسماء برقة ورأفة:

– هل ما زلتِ مصرة على أن تبقي هنا يازينب؟.. لماذا لا تأتين لتعيشي معنا في منزلنا إلى أن يعود أخواكِ مِن الحرب؟

– لقد تكلمنا في هذا الموضوع سابقا.. بإذن الله يعود أخواي قريبا وأكون بخدمتهما.

فقال جادا:

– أنا سألتحق بالجبهة بعد يومين لأن إجازتي هذه المرة سبعة أيام فقط، وطالما مصرة على البقاء هنا فلتظل أسماء معك حتى يعود أخواكِ.. كم أنا مشتاق لرؤيتهما.. لقد مضت ثلاثة أشهر ولم أرَ أي واحدٍ منهما.. فقد اختلفت مواعيد إجازاتنا.

قال ذلك ثم استأنف استنشاق سيجارته، ونفثها في الهواء وهو يفكر ماذا حلَّ بالأخوين؟ ونهض يتمشى في حديقة المنزل متذكرا أيام الشباب حيث كانوا أطفالا يلعبون سويا في صحن هذا المنزل، بينما كانت زوجته

أسماء تخيط له أزرار بدلته العسكرية بعد أن تقطعت منه أثناء المعارك، وحالها حال أغلب النساء مع أزواجهن في أرض العراق الحزين.

وفي اليوم السابع جهَّز أمتعته، وحزم حقيبته وقبَّل أطفاله وأوصى زوجته الحبيبة بأختها المسكينة قائلا:

– حاولي أن تنسيها مرارة الفقدان وقهر الموت وخيبة الطموحات.. وحاولي أن تُخرِجيها من هذا الجو الحزين.. ولا تقسي عليها في شيء.

– حاضر يا زوجي العزيز.. وعندما تعود في إجازتك القادمة إن شاء الله سيكون أخواي موجودين هنا.. وسنذهب الي بيتنا.

قالتها وهي مبتسمة، فقبلها واحتضنها وخرج مسرعا ليلحق بالقطار.

وصارت أسماء أكثر اهتماما وحرصا على أختها زينب، فهي تحاول دائما أن تكون أغلب الجلسات في الحديقة حيث الأشجار والخضرة والزهور لتخرجها من جو المنزل والغرف المغلقة الداكنة وذكريات أمهما التي لا تفارقها وتصيبها دوما بالأحزان.. قالت زينب:

– إني أشكركِ كثيرا يا أسماء.. لقد كان زوجك شهما ونبيلا معي.

– هذه مزاياه وسجاياه دائما.. إني أدعو له في كل صلاة أن يحفظه ويعود سالما لنا.

وحلَّ شهر رمضان وعادت زينب إلى صلاتها التي كانت قد أهملتها كثيرا أوان مرض أمها ووفاتها، وفرحت أسماء بعودة أختها للصلاة، وسمعت أصوات الأطفال في الشارع فرحين محتفلين بقدومه.. قالت أسماء:

– نذهب إلى السوق يا زينب لنشتري بعض الحاجيات.. غدا نبدأ صيامنا وسيكون الخروج صعبا وشاقا علينا.

سكتت زينب قليلا وتنهدت، ثم تذكرت الفجيعة الطاحنة لقلبها وقالت:

– لا اذهبي أنتِ وسأبقى مع الأولاد في المنزل.

ويبدو أنَّ ذكريات العام الماضي قد عادت إلى ذهن زينب، فتذكرت حين ذهبت مع أمها لتشتري مؤونة شهر رمضان بعد أن أكملت خياطة ثياب بنات ونساء الجيران لتشتري بثمن ذلك الطعام والشراب وكافة الاحتياجات.

وتساقطت دموعها مجددا مع اختناق العبرات في صدرها وهي تتذكر أيضا كيف حملت أمها كلَّ الحاجيات، ولم تقبل أن تساعدها في حملها لأنها كانت ثقيلة عليها، ولأنها كانت تشفق عليها من أن يصيبها ألم ومشقة، فهي فتاتها المدللة التي حرمت نفسها من الزواج مِن أجل أن تبقى بالقرب مِن أمها ، ومِن أجل الاعتناء بها.

ذهبت أسماء وبقيت زينب مع ذكرياتها وأحزانها التي لا تنفك تعاودها.

***

الفصل الثاني

مضى هزيعٌ مِن الليل، وانغمرتْ الجوامع والمساجد بالتكبير والتهليل والترحيب بشهر رمضان ، وخرج الناس لصلاة التراويح ثم عادوا، وكانت الساعة بعد الثانية عشرة، حين جلست النساء لإعداد طعام السحور وللتهيؤ الروحي والمعنوي للصيام، وكان الهدوء يعمُّ كلَّ مكان، وقد نام الأولاد وإذا بالباب يُطرَق.. قالت أسماء متساءلةً لزينب: (مَن يأتينا في مثل هذا الوقت مِن الليل؟ وصاحت زينب وهي تلصق جسمها بالباب في قلق:

- مَن الطارق؟

فجاء صوت الطارق واهنا:

- أنا أخوكِ.. أنا أحمد.. افتحي يا زينب.

فتهلل وجهاهما، وغمرت الفرحة روحيهما، وفتحت زينب واحتضنت أخاها، فقد مضى على غيابه بالجبهة ما يقارب خمسين يوما.

ولم ينتبه أحمد للون ملابسها السوداء للوهلة الأولى وهو يدخل مسرعا ويتجول في البيت باحثا بعينيه عن أمه وصائحا بأعلى صوته: (أمي أمي.. هل أنتِ نائمة؟).

ووصل إلى موضع نومها لكنه لم يجدها، وكانت الصدمة كبيرة، وتسمَّر في مكانه كجذع شجرة، ثم التفت إلى أختيه وقد ضجتا بالبكاء والعويل والنحيب.

- أين أمنا؟

فلم تجيباه، ففهم الحقيقة، فصرخ مِن الأعماق: (أمي.. أمي!).

ثم ركع على ركبتيه، وانفجر بالبكاء.

وحين استرد أنفاسه وصوته سأل:

- كيف ماتت؟ ومتى؟ ..... ولماذا؟!

سأل ثم عاد لحالته المؤلمة، ولم تستطع أختاه إخراجه مِن حالته الحزينة، ولم يكن يعلم أنَّ الكوارث والضربات ستكون بهذه الكمية والشدة.. وآهٍ على فقدان الأم!.. فقدانها فقدان للحياة، ووجودها وجود للجنة في دنيا الناس، وصدق الكاتب المصري رضا الحمد حين قال: "يموتُ الإنسانُ في حياته مراتٍ ومراتٍ مع موتِ كلِّ عزيز، ثم يموتُ موتته الأخيرة لينتهي الألم، وأظنه أيسر موتٍ يلقاه الإنسان".

بقي أحمد على هذه الحال لمدة يومين مغلقا على نفسه باب غرفته، لا يأكل ولا يشرب، وكانت حالته تماما كما كانت حالة زينب آخر العنقود.

ثم حدَّث نفسه بأنه يجب أن يخرج مِن هذا الوضع المُحزِن أمام أختيه على الأقـل، وليجعل الحزنَ دفينا في قلبه ووجدانه، نعم، ما ذنب أختيه المسكينتين؟ .. فليكن شجاعا صبورا.

خرج أحمد أخيرا من غرفته وصمته ليضم أختيه إلى حضنه كأنه نسر كان قد طار في الآفاق شاردا هائما، ثم عاد لموطنه وأحبته مادا جناحيه ليكونا ظلالا آمنة.. قالت أسماء:

– سأعد لنا عشاء مختلفا لذيذا هذه الليلة بمناسبة عودة أحمد سالما.

وأسرعت إلى حديقة المنزل، فجهزت عشاءً مِن المشويات، فأكلوا جميعا، وإن كان أحمد لا يزال يحمل بداخله أطنانا مِن الأحزان لفقدان أمه.

وتمضي الأيام مسرعة، وها هو اليوم الرابع، قال أحمد لأختيه:

– اليوم سأذهب إلى المقبرة لزيارة قبر أمي.. ولأقرأ سورة الفاتحة وأبلل تربتها بالماء.. ولكن مَن سيدلني على قبرها؟

قالت زينب:

– كل الجيران مِن كبار السن حضروا الجنازة.. لكن الأفضل لك أن تسأل العم أبا محمود.. وسيأخذك بسيارته إلى هناك.

وصل أحمد إلى المقبرة، وكان يسير بخطى وئيدة وهو يجتاز القبور، وأمامه أبو محمود رغم ضعف بصره، إلا أنه يعرف جيدا قبر الوالدة التي لم تمضِ إلا أيامٌ معدوداتٌ على وفاتها، وأخيرا أشار الرجل على أحد القبور.

– يا أحمد.. هذا قبر والدتك الطيبة.

تحركت شفتاه، لكنه لم يستطع النطق بكلمة واحدة، وركع على رجليه عند رأسها يناجيها: (أمي أمي.. أنا أحمد.. لقد عدت مِن الحرب.. كيف تتركيني وأنا أحتاج لكِ كثيرا.. لقد قاتلتُ وناضلتُ لأعود إليك سالما وأحفظ وطننا ليكون آمنا لكِ ولكلِّ الأمهات.. أمي.. أنا أشم عطرك وأنتِ تحت الثرى.. كيف طاوعتهم قلوبهم لأن يضعوكِ تحت التراب؟ .. أمي أنا ابنك المسكين بدونك.. أجيبيني بكلمة واحدة).

قال أبو محمود:

– انهض يا بني وقف معي لقراءة سورة الفاتحة والأدعية.. فلن ينفع أمك غير ذلك.

وارتفع آذان الظهر، فتركه أبو محمود ذاهبا إلى جامع المقبرة، فتوضأ وصلَّى الظهر، ثم عاد إليه فوجده لا يزال جالسا حزينا منهارا عند رأس أمه.. أخذه وركبا السيارة المنطلقة ببطء بالشارع الترابي الذي يتوسط المقبرة، وعينا أحمد وقلبه لا يفارقان القبر حتى وصل البيت، ولا يزال يشعر بحزن شديد، ونام واستغرق في النوم بكل ما به، وكأنَّ النوم مهربه مِن الهموم.

وفي اليوم الخامس مِن إجازته تذكر أحمد أخاه علي.. وراح يفكر: كيف حاله؟ وأين هو الآن؟.. إنه يشتاق له كثيرا.. أربعة أشهر لم يره.. ثم جلس وأختاه لمائدة الطعام وقال لهما محاولا تغيير حالته وحالتهما:

– هل تعلمان أني نسيت سؤالكما عن خطيبتي أحلام؟

– كانت هنا في العزاء تواسينا وتعد الأكل لنا.. لكني لم أرها تبكي لا هي ولا أمها.

قالتها زينب، فأسرعت أسماء تقول:

– إن زينب تحب أن تمزح معك.. إنها بكت كثيرا.. وربما أكثر مني ومن زينب.

وسحبتها أسماء إلى الداخل وعنفتها قائلة:

– لِمَ هذا الكلام يا زينب؟.. ألم أقل لكِ لا تتحدثي عن أحلام بسوء أمامه.. إنه يحبها ويعشقها ولن يصدقك.

– إنها الحقيقة.. حتى إني وجدتها تضحك مع أمها في المطبخ.

– لكن لم يحدث منها شيء مؤكد يجعلنا نسيء لها أمام خطيبها.

– أنت طيبة وساذجة.. وستثبت لكِ الأيام صحة ظنوني.. أنت لا تعرفين مكر النساء.

ولم يتبقَ على انتهاء إجازة أحمد إلا يومٌ واحدٌ، فقرر أن يذهب إلى منزل خطيبته ليراها وأهلها، وكانت الشمسُ قد جنحتْ نحو المغيب.. طرق الباب ودخل وخرج دون أن يسامر خطيبته كالعادة، فقد أنساه فقده لأمه أمورا كثيرة، وعاد إلى البيت وحزم حقائبه، ثم جلس يحتسي كوبا مِن الشاي قبل أن يذهب إلى المجهول الذي صار يذهب إليه كثير مِن العراقيين في مثل هذه السنين الغابرة التي لا تتوقف الحرب بها إلا لتعود.. قال:

– يا أسماء ويا زينب.. لا تنسيا أن تُخرِجا ما لذَّ وطاب مِن المأكولات على روح أمي وخاصة السمك لأنها كانتَ تحبه.. لا تنسيا أن تطعما جارتنا الفقيرة التي مات أبناؤها الثلاثة في الحرب ولم يبقَ لها أحد.. أطعماها على روح أمنا.. هذا أولا.. وثانيا حين يعود أخونا علي لا تبكيا أمامه كما فعلتما أمامي.. يكفيه ما يفقده مِن أصحابه كل ساعة في هذه الحرب اللعينة.. لا تثقلا عليه.. وعليكما ملازمة الدار وعدم الخروج منها.. وإذا كتب لي الله الشهادة فلا تبكيا عليَّ ولا تلبسا الأسود.

فقالت أسماء في حزن:

– لا تقل هذا الكلام يا أخي العزيز.. نسأل الله أن تعود سالما معافا مع علي وتلتقيان سويا مع زوجي الطيب.

– صحيح.. لقد نسيت أن أسألكِ عنه.. أبلغيه سلامي إن عاد قبلي أو إن هاتفتيه.. وسأحاول الاتصال به.. وأرجو الله أن تجمعنا الأيام ونلتقي كلنا هنا من جديد.

– اللهم آمين .

***

الفصل الثالث

خرج أحمد إلى الطريق مسرعا ليلحق بالقطار المنطلق مِن بغداد، والقطار كالأيام لا ينتظر المتأخرين والكسالى والغافلين، وخرجت أخته أسماء خلفه تحمل دلو ماء ترشه خلفه، وهي تعتقد مِن هذا العمل أنه بذلك سيعود سالما، فهكذا تقول الأسطورة السومرية القديمة، بأنَّ رشِّ الماءِ خلف المسافر تقليدٌ يهدف إلى التقرب مِن الإله (أنكي) إله الماء كي يحفظ المسافر مِن شر الطريق، ويحفظ المقاتل في الحروب مِن شر القتل، وبقيت هذه العادة مِن الألف الثالث قبل الميلاد إلى يومنا هذا وحسب ما تقول الأساطير.

وأطلق القطار صافرته معلنا بدء المسير، المسير نحو الموت، نحو الجثث، نحو المجهول، ولم يخفف جمال الفتيات الذاهبات إلى الجامعة معه بالقطار وجعه وألمه، فلقد كان يعتصره اليأس مِن هذه الحياة اللعينة، لكنَّ شيئا جميلا مبهجا كان ينير حياته المظلمة الكئيبة، إنها خطيبته أحلام.

ومرَّت الأيامُ مسرعةً، فعاد علي، وحدث معه مثلما حدث مع أحمد، ووقع الأمر في نفسه وقعا شديدا، فصار يعاني آلاما أخرى غير الآلام التي

عاد بها، فقد رجع مصابا بطلقٍ ناري في يده ومعه كمية كبيرة من الأدوية والعلاجات، فانشغل بنفسه ودوائه وهو يخفي الحزن في قلبه ويبكي بكاء مريرا سواء كان وحيدا منفردا، أو كان جالسا مع أختيه على الرغم من محاولته التجلد وعدم الجزع أمامهما، فهو الكبير الذي يقع عليه الحمل الأكبر ، ويجب عليه أن يتظاهر بالقوة والعزم.

جاء أعزُّ أصدقائه وأحد جيرانهم، ذاك الأصفر وجهه، الملقب بالأصفر ، فجلس يواسيه على فقدان الأم الطيبة، ثم قال له:

– سآخذك إلى النهر.. ونتعشى هناك مع المجموعة كلها.

هم مجموعة متقاربة الأعمار حيث، إنَّ أعمارهم تقارب الأربعين، وجميعهم غير متزوجين.. يرفضون فكرة الزواج نهائيا، فجمع بينهم التقارب في الأعمار والأفكار.

– لن أذهب معكم.. أرجوك.

– بل ستذهب معنا يا علي.. نحن مَن نرجوك.. أنسيتَ أنكَ مَن كان يتكفَّل لنا دائما بشوي الأسماك على حافة النهر؟

وكان هدف الأصفر أن يخرجه مِن عزلته، فأصر عليه حتى وافق، وبعد صلاة المغرب أخذا متاعهما وتوجها إلى النهر الذي لا يبعد كثيرا عن منازلهم، وهناك قضيا وقتا رائعا مع المجموعة، وتغيرت نفسية علي بعد أن رأى أصحابه وجالسهم، لكن كان بعضهم جنودا في الحرب، فأسف أن لم يرَ هؤلاء البعض.

وقاربت الساعة الثانية عشرة، واقترب موعد السحور، فوجب عليهم أن يعودوا إلى منازلهم للاستعداد للسحور ثم صلاة الفجر في المسجد.

وقرب باب منزل علي قال علي للأصفر:

- ادخل وتسحَّر معي .

وكان الأصفر يرجو الدخول بفارغ الصبر لكي يراها ولو بنظرة خاطفة، تلك التي ملكت عليه فؤاده، إنها زينب التي يراها دائما فتاة جميلة طيبة ناضرة الخصال، وكأنها أجمل زهرة ببستان، وقد حان قطافها.

دخل الأصفر، وجلس في الحديقة بينما ذهب علي لإعداد السمك، فلمح الأصفر زينب مِن شباك المطبخ.. (الله!.. يالله!.. إنها كما قالت أمي تماما.. قد صارت جميلة جدا.. رقيقة جدا.. ذات وجه ملائكي بريء).

وأشرفت الساعة على الواحدة والنصف وهم جالسون، فاستأذن الأصفر، فودعه صديقه، وتوجه مباشرة إلى أمه.

- أين كنتَ يا أصفر في هذا الوقت المتأخر مِن الليل؟

- كنتُ مع أصدقائي نتسامر قليلا.. كانت ليلة رائعة ومسلية .

- وما بال وجهك اليوم مختلفا؟!.. خبرني ولا تكذب كعادتك.

- متى كذبت عليكِ؟.. وما الاختلاف في وجهي؟!

- إنَّ وجهك اليوم أحمر وليس أصفر كما هو منذ قذفتكَ للدنيا.. حدثني يا ولد.. ماذا رأيتَ على الشاطىء حتى احمر وجهك هكذا لأول مرة في حياتك؟

وكان الأصفر خجلا مِن أن يتحدث بهذا الموضوع ولما تمضِ فترة الأربعين يوما على وفاة أم زينب، لكن أمه ظلَّت تلح عليه.

- تحدث يا أصفر.. ماذا بكَ؟

- لا شيء يستحق الاهتمام يا أمي.

قالها وهو مضطرب مرتبك، وإنه على الرغم مِن بلوغه الأربعين لا يزال يخاف مِن أمه أشد الخوف لأنها بمثابة أربعين رجلا بصوتها الجهوري وفطنتها وقوة شخصيتها، ويقال إنها كانت تطلق العيارات النارية مِن بندقيتها بيد واحدة عند فوز المنتخب.

- حدثني يا أصفر عما بكَ.. فإني أرى في عينيك كلاما تافها مثلك.

- رأيتُ زينب.

قالها الأصفر وهو متردد مرتبك، فابتسمت أمه ابتسامة صفراء كوجهه المعهود، وقالت:

- يا ملعون أنا أمك أعرفك جيدا.. وكيف رأيتها؟

فعاد إلى صمته، لكن أمه في النهاية امرأة في كل الأحوال، والنساء يشغفن دائما بأن يطلعن على كل التفاصيل، صغيرها وكبيرها.. قالت على عجل:

- تكلم.. كيف رأيتها.. وهل كلمتها أم لا؟.. وماذا قلتَ لها وقالت لكَ؟

- لا شيء يا أمي.. إنها مجرد نظرة خاطفة.. لكن يبدو أنها فتاة طيبة.

- وماذا أيضا؟

- ورقيقة.

- وماذا أيضا؟

- وطـويلة.

- وماذا أيضا؟

- وممتلئة قليلا.

- كل هذه التفاصيل وتقول نظرة خاطفة يا ملعون!

قالتها وهي تضحك، فابتسم الأصفر وقال:

- يكفي يا أمي.. أما زلتِ تناديني بالملعون وقد بلغت الأربعين؟!

- لكنك ما زلتَ طفلا في نظري يا ملعون.. وستبقى طفلي ما بقيت أنا على قيد الحياة.. أم تريدني أن ألحق بأم زينب؟

ابتسم الأصفر ابتسامة عريضة وقال:

- كما ترين .

- ماذا تقول يا ولد؟

- لا شيء يا أمي.

قالها وهـو يبلـع ريقـه مبعثر الرأس شـارد الفكـر، فقالت له أمه بانفعال شديد:

- الأفضل أن أموت كي تحطمك الدنيا مِن بعدي.

- أعوذ بالله يا أمي.. بعد الشر عنكِ يا حبيبتي .

- قد قلتُ لك سابقا يا ملعون إن زينب فتاة طيبة وصاحبة أخلاق وجمال.. وكانت أمها المرحومة تلمح لي وتتمنى أن تطمئن على زينب معكَ قبل أن تموت.. لكن يا ولدي لا يصح أن أفاتحها بهكذا موضوع إلا بعد سنة مِن الآن، حتى تدور سنة على وفاة أمها.

- ما هذه القسوة يا أمي؟!

- اصمت يا أصفر.. هكذا هي العادات والتقاليد التي نشأنا عليها

- ولكن يا أمي.....

- اسكت الآن.. لقد قضي الأمر .

وبقيت ليلتان على انتهاء شهر رمضان وحلول العيد، وعاد الأصفر يفاتح والدته، لكن فشلت كل محاولاته لإقناعها كي تتحدث مع زينب، وكم تمنى لو يستطيع خطف نظرة واحدة مِن عيني زينب العسلية قبل أن يعود للحرب، لكن جاءت ليلة العيد، فحزم حقائبه، وتوجَّه إلى محطة قطار بغداد ليكون على الجبهة مع زملائه يقاتلون صبيحة العيد.

أما علي فقد وصل إلى كتيبته قبل ذلك بأيام كثيرة، لكن قلبه بقي مع أخته زينب يفكر بها، ماذا ستأكل؟ ماذا ستشرب؟ وهي تخاف جدا في الليل، فلو تزوجت لكان أفضل له وللجميع.

وبعث برسالةٍ إلى أخيه أحمد في الشطر الثاني مِن الجبهة، يسأل عنه ويواسيه بفقدان أمهما، ويتمنى أن يكون بصحة وسلامة، ووصلته رسالةٌ مِن زوج أسماء يقدم له التعازي لوفاة أمه.. هكذا كانت التعازي أيام الحرب.

وبقي الأصفر يفكر بزينب ويعتب على نفسه، لماذا لم يتقدم لها قبل وفاة والدتها؟.. يجب أن يسرع لخطبتها قبل أن يخطبها أحد غيره، وعن أم الأصفر فقد ظلَّت تردد في نفسها أنها كانت قاسية عليه، فندمت على ذلك قليلا، لكن ما لبثت أن قالت لنفسها: (إن هذا الأمر لم يحن أوانه.. وإن ابني هذا الأحمق الملقب بالأصفر مزاجه دائم التقلب.. ودائما متغير الأهواء.. لكن مع ذلك سأذهب غدا صباحا لأجلس مع زينب وأطمئن عليها).

وفي الصباح الباكر مع ارتفاع الشمس قليلا توجهت أم الأصفر صوب دار زينب ومعها صحن فواكه، وصلت وجلست تنظر لزينب، هذه التفاحة التي حان قطافها، هادئة ووديعة وفيها كل صفات المرأة والزوجة المطلوبة، وظلت متحيرة لبرهة، ثم ثبتت في النهاية على رأيها بأنه لا يمكن مفاتحتها الآن بشأن الزواج ولما يمضِ على وفاة أمها سوى شهرين.

وكانت زينب قد تعهدت مهنة والدتها وهي الخياطة للحي، ليس بسبب حاجتها للأموال بقدر حاجتها النفسية للجلوس في مكان أمها، ومزاولة نفس مهنتها، فهي مع تتابع الأيام التي تُنسِي الإنسانَ الكثيرَ لم تستطع أبدا نسيان أمها الحنونة.

وحصلت هدنة بين المتقاتلين، وتفاءل الجميع بهذا الخبر، فربما تكون نهاية الحرب، فيعود الجميع إلى بيوتهم وحياتهم الطبيعية الآمنة.

وعاد زوج أسماء مِن الجبهة، ثم عاد علي وأحمد، ومعهم بشارة طيبة مؤكدة بقرب انفراج الأزمة وانتهاء الحرب وإحلال السلام والأمان، ففرح الرجال بقرب استقرارهم ببيوتهم وأحضان أطفالهم وذويهم، وفرحت النساء بقرب انقضاء الفراق والأحزان وتشييع الجنائز في كل ساعة.

وجلس الجميع على المائدة العامرة بأصناف الطعام والفواكه، وبالفعل إذا بخبر عاجل يبشر بانتهاء الحرب والرحمة للشهداء والعزاء والسلوى لأمهات الشهداء والأرامل والأيتام، فارتفعت أصوات الفرح وأهازيج السرور وحب الوطن، وخرج الجميع إلى الشوارع مستبشرين بنهاية الموت ونهاية الجحيم ونهاية صافرات الإنذار ورائحة الملاجىء العفنة.

وللمرة الأولى منذ سنوات عجاف يلتقي أحمد وعلي سويا مع زوج أسماء الطيب، وعناق شديد يتبعه بكاء ودموع وشجن وذكريات أليمة، عناق الأخوة الذين حرمتهم الحرب مِن اللقاء لسنين، وها هم يلتقون بعد طول اشتياق بعناقٍ أبكى الجميع مع أمواجٍ مِن الذكريات تدور في أذهانهم وعلى ألسنتهم عن زملائهم شهداء الحرب.

وركض أحمد مسرعا إلى حقيبته الصحراوية المطعمة باللون الأخضر، فأخرج بدلته العسكرية أحرقها قائلا بكل غضب وتشف: (اذهبي إلى الجحيم.. لا أريد أن أراكِ بعد اليوم.. لقد كان لي معكِ ذكريات مؤلمة قاسية).

وصاح به أخوه علي مبتسما:

- ماذا تفعل يامجنون؟!.. صحيح انتهت الحرب ولكننا ما زلنا جنودا إلى أن يحين موعد تسريحنا النهائي.

– ماذا تقول يا أخي؟.. لا يمكن لي أن أذهب بعد اليوم إلى الحرب اللعينة.

– لا زلنا جنودا يا أحمد.. وإنَّ أمر تسريحنا سيتطلب شهورا وربما سنوات.. وأظن أنه طالما لا تزال تعيش في هذا البلد المسكين فستبقى معك هذه البدلة حتى قبرك .

وعاد الأصفر أيضا مِن الحرب، فدخل المنزل على أمه، فوجدها تصلي على سجادة خضراء، وبجوارها زوجها وأبوه الطيب على أريكته يغط في نوم عميق وهو ممسك بجريدته اليومية، ولما انتهت مِن صلاتها التفتت يسارا، وإذا بالأصفر يقف والابتسامة تعلو وجهه، فنهضت آخذا بيديها، فاحتضنته وقبلته وقبَّل يدها وهو منفرج الأسارير، وكان أول ما حادثها به بينما يأكل هو موضوع الذهاب لخطبة زينب، وأحسَّت أمه بما في صدره، فقالت:

– صرتَ لا تنساها أبدا يا أصفر.

– كفى يا أمي.. لا تُشعِريني بالخجل.

– وهل مثلك يخجل أيها الأحمق؟

فضحك الأصفر، وقال بعد أن أثنى عليها ثناءً حسنا:

– ألم يحن قلبك عليَّ بعد يا أمي الغالية؟

– ومتى يقسو قلب أم على ابنها؟.. إنكَ ولدي وحيد قلبي وروحي.. لكن يا ولدي هناك حدود وتقاليد لكل شيء وخاصة في مثل هذه الموضوعات.. والظاهر أنكَ لا زلتَ تجهل هذه الحدود والتقاليد.. فأنا لا أستطيع التحدث

قبل أن تنتهي سنوية أمها.. هل تريدني أن أصبح أضحوكة لنساء الحي وربما لنساء المدينة كلها؟.. لكن مع ذلك يمكنكَ أن تذهب أنت وتفاتح .. أنتَ صديق عزيز لهما.. ولديكَ حظوة عندهما.

– كيف؟.. ألم تقولي إنَّ هذه الأمور تفعلها النساء.. وإنَّ هناك تقاليد؟!

– اذهب يا ملعون وجرِّب!.. فلو وافقا كان بها.. المهم لا تحرجني أنا.

قالتها بعصبية شديدة، وقد كان صوتها العالي يهز الأركان ويُسمَع صداه في كل البيوت المحيطة، وانفضَّ كلامهما على ذلك، أما عن والده فلم يشاركهما حديثهما، إذ ليس له دخلٌ أو خبرةٌ في مثل هذه المواضيع.

وفي عصر اليوم الثاني قرَّر الصحاب الخروج سويا إلى سوق مدينتهم بعد طول غياب، حيث دكاكين الخضرة ومحلات الملابس والعطور والفتيات وهن متعطرات بأرقى العطور الشبابية، وبحركاتٍ يخفق لها القلب، وتسلب العقل رشده ووقاره.

وبالطريقِ قال الأصفر في نفسه، وكانت الأفكار كالأمواج في رأسه تتصارع في تتابع: (سأفاتح أخاها علي في الأمر.. فهو صديقي المقرب.. ومِن المؤكد أنه سيكون بجانبي ويفرح لفرحي.. نعم إنه صديقي المخلص والطيب.. ولكن ماذا لو قال لي وهو يصيح عاليا غاضبا: (ألا تستحي مما تطلب؟.. فيا ربي!.. ماذا أفعل؟).

وانتبه أحمد لحالته الغريبة، وشعر بتغيره عما يعرفه فسأله:

– ماذا بك يا أصفر؟.. لماذا لا تبادلنا الحديث؟.. هل هناك ما يشغل بالك؟.. أراكَ شاردا طوال الوقت يا صديقي.

فابتسم الأصفر وقال هاربا:

– لا شيء مهم.. فقط تذكرتُ أصدقائي في الجبهة.

وكانوا يقصدون المقهى القديم الذي كانوا يلتقون فيه سابقا أيام السلم، فلما وصلوا إلى بابه الأرجواني وجدوه لا يزال على حاله لم تغيره السنون، اللون نفسه، الأقداح والأكواب هي نفسها، وأباريق الشاي ما زالت في مكانها لامعة، ولكن رواد المقهى قد تبدلوا بأناس جدد ووجوه غريبة ومتعبة غلب عليها الإرهاق، وملأت وجوههم التجاعيد والألم مِن فقد الأحبة.

ويبدو أنَّ المقهى قد صار له صاحب جديد يتعهده، فسلموا عليه، ورحَّب بهم جميعا، إنه وريث أبيه المرحوم سالم، لقد مات الرجل الطيب وسط هذه السنين التي ضاعت مع رحى الحرب، ولقد حالت الحرب بين كثيرين، وغيَّرت الكثير.

صاح صاحب المقهى بأعلى صوته:

– كل المشروبات على حسابي ابتهاجا بنهاية الحرب وعودة رواد المقهى مِن جديد.

وتجرَّأ الأصفر، فنهض مِن مجلسه، وجلس بقرب علي وهو يمتلىء بالشجاعة والإقدام، وقد ترك خلفه كلَّ أسباب الخوف والخجل.

– عندي موضوع مهم أريد مناقشته معك يا صديقي .

- تكلم أيها الحبيب.

أحسَّ الأصفر بالراحة بعد هذه الكلمات التي بدت له بداية طيبة للكلام.

- أريد أن أتقرب منكم أكثر.

- تعال واجلس في حضني إذا شئتَ.. لا تخجل.

قالها علي ممازحا له، ثم ضحك كثيرا، فقال له الأصفر:

- يا علي هذا ليس وقت المزاح.. أريد أن أخطب أختك زينب.

فنظر إليه علي ثم صمت، ثم قالت متعمدا بلهجة غاضبة:

- هل جُننتَ يا أحمق؟!

فقال الأصفر في نفسه: (يا ويلي!.. يا ويلي!.. ماذا فعلتُ؟!).

وأحسَّ اضطرابا شديدا وخفقانا في قلبه، وبدأ يتصبب عرقا، وشعر علي بما يجول في نفس الأصفر فقال له مبتسما:

- كنتُ أمازحكَ.. أَوقِف هذا الطوفان الذي صار يجري بداخلك.. أظنكَ يا صديقي على وشك أن تنتحب وتولول كالنساء.. أبشر أيها الحبيب واثبت.. وهل سنجد نسيبا مثلك؟.. فأنتَ حبيبنا وصديقنا ومِن جيران عمرنا رغم أني أكره أمك المسترجلة.. لطالما ضربتنا على مؤخراتنا عندما كنا نقذف الكرة إلى منزلكم أثناء اللعب.

فرح الأصفر وتهلل وجهه، وخرج مسرعا مِن المقهى دون استئذانٍ، حتى إنه قد نسي مفاتيح بيتهم على الطاولة، وعلي ينظر له ويضحك.. كان قاصدا أمه ليبشرها بالخبر السعيد.

وصل وهو يلهث، وطرق الباب، فلم يُفتَح له، فتحسس مفاتيحه فلم يجدها، ففتح الباب بقوةٍ ركلا بقدمه، ودخل فوجد أمه تعد طعام العشاء.. أحسَّت به، وإحساس الأم لا يخيب.

- ها.. أشعر بكَ فرحا مستبشرا.

- لقد فجرتُ القنبلة يا أمي.

فضحكت وقالت تمازحه:

- لكن رأسك وشعرك المجعد لا يزالان سليمين.. أحمد الله أنكَ لم تفجرها تحت إبطكَ.

- لا وقت للمزاح يا أمي.

- إذن يبدو أنَّ صديقك علي قد وافق عليكَ.

- مَن أخبركِ؟.. هل كنتِ تتنصتين علينا في المقهى؟!

- مَن يمزح الآن يا أحمق؟!

- أعتذر أعتذر.. معك حق.

- إنَّ قلب الأم يعلم بخفايا الأمور.. ويحس بنبضات قلوب الأبناء ومشاعرهم وفرحهم وحزنهم وغضبهم ورضاهم.. لكني أيها الأربعيني المتهور أريد أن أسألك سؤالا فأجب بصراحة.. هل تحب زينب حقا؟

وظلَّ ابنها صامتا، إنه يسمع لهجة جديدة تتحدث بها والدته معه، لهجة الحب، وهو لم يجرب طعم الحب سابقا، ولا يعرف عن العلاقات شيئا، إنه من عائلة عُرِفَت بالالتزام الديني.

– لماذا لا تجيب يا ولد؟

– والله لا أعرف يا أمي.. ولكن هي فتاة جميلة كما قلتِ.

فنظرت لابنها في عجب وحيرة، وقد صار شاردا يتكلم برقة غريبة لأول مرة ويداري ابتسامته وسعادته، فقالت له:

– لأنكَ تكلمتَ مع أخيها الكبير، فيمكنني أن أتكلم معها صباح الغد دون تردد.

– ولِمَ صباح الغد يا أمي؟!.. اذهبي الآن الآن وليس غدا.. أرجوكِ.

– اصمت يا ولد.. دعها تفكر قليلا الليلة بما سيطرحه أخوها عندما يرجع مِن السوق .

– حقا لقد تركتهم في السوق داخل المقهى وجريتُ.

– دائما أنتَ متعجل في كل أمورك.

وبقي ليلته ساهرا يناجي القمر، ويحلم بما ستقوله زينب، ولم ينم ليلته إلا بعد أن صلَّى الفجر، وكان خلال يقظته قبل نومه يتخيل نفسه وهو يجلس بجانبها ليلبسها خاتم الخطوبة، وكيف ستعيش معهم في البيت وتنجب له ثلاثة أولاد يغمرون البيت سعادةً ولعبا.

وصحت والدته وإذا به يغط في نوم عميق، فابتسمت ابتسامة مقرونة بالشفقة عليه، ثم وقفت بجانبه وصاحت مازحةً: (ادخلي يا زينب) فنهض مِن الكرسي واقفا على رجليه وهو يصيح: (أين زينب؟.. أين زينب؟).

ضحكت أمه حتى سقطت على الأرض، فقال لها:

- لماذا تفعلين بي ذلك يا أمي؟

- سأذهب اليوم عصرا إلى زينب لأتكلم معها.

- ولماذا عصرا؟.. اذهبي الآن.. نفذي لي طلبا واحدا في حياتي

فأشفقت عليه أمه، ثم تبسَّمت بضحكةٍ صفراءَ كوجهه، وأمسكت بأذنه بقوة قائلة:

- لا مناص منك يا أصفر.. حسنا سأذهب الآن.

فارتسمتْ ابتسامة على وجهه الشاحب أخيرا وراح يردد:

- أشكرك يا أمي.. أشكرك.

وبعد أن انتصف النهار توجهت الأم لبيت زينب، وهي تظنها ستذوب عشقا بجمال الأصفر وطوله ورشاقته وتسريحة شعرة الجميلة بعد أن أطال شعره لأول مرة منذ سنوات العسكرية.. كانت المرأة واثقة مِن نفسها وابنها إلى حد كبير، حالها حال جميع النساء، فنظرة كل أم لولدها غير نظرة سائر الخلق له.

استقبلوها أحسن استقبال، وجلست المرأة وتحدثت ذاكرة مناقب وخوارق ابنها وشجاعته في الحرب وغير الحرب، وأخلاقه الراقية.

فأجابت زينب جوابا قاسيا وتقاطعها ببرودٍ بعثر آمالا كثيرة:

– أنا أعرف ما في قلبك وما الذي جاء بك في هذه الساعة يا خالة؟.. أنا أرفض الزواج مِن الأصفر.. أنا غير موافقة.

وقعت كلماتها كوقع الصاعقة عليها وعلى الجميع، وعلت وجوههم الدهشة:

– ولماذا يا بنيتي؟.. أنتِ فتاة جميلة ابنة أصول.. لذلك فإن الأصفر يريدكِ.

– أعلم ذلك جيدا.. ولكن بكل صراحة الأصفر أكبر مني بأكثر من ثلاث عشرة سنة.. وأنا متعلمة والأصفر غير متعلم.

وبقي صامتين، فهما لا يرفضان لها طلبا، وهي أختهما المدللة، والكلام الذي قالته عن فرق السن حقيقي، ولها كامل الحق في ذلك.. قال علي لنفسه يعاتبها: (كيف لم أفكر في ذلك).. وقال أحمد لأخته زينب:

– وما يُجدِي التعليم وأنتِ جالسة في البيت بدون وظيفة؟

فقالت أم الأصفر بكلِّ استياءٍ:

– دعكَ منها يا أحمد.. فمثلها في تكبرها حتما تندم في آخر المطاف حين تتزوج زواجا يورثها القبر.. والحمد لله أنَّ ابني الأصفر تتمناه كلُّ فتيات الحي.

ونهضت مِن فورها بطولها الفارع وجسدها الضخم غاضبةً مِن هذا الاستعلاء الواضح في كلام زينب، وفتحت الباب بقوة، وخرجت وهي

تغلقه خلفها بقوةٍ أشد، وسارت بالشارع تجر خلفها أذيال الخيبة والخسران، وتشعر بانكسار أنفتها وانهزام شخصيتها القوية أمام تلك الفتاة التي رأتها حمقاء.

قال أحمد فور أن غادرت:

– لماذا لم توافقي على الأصفر يا زينب؟

فصاحت به زينب بصوتٍ عال:

– كيف تقبلون على أنفسكم أن تزوجوني بهذا الرجل وأنا أختكم اليتيمة؟!.. ألا ترون وجهه الأصفر الشاحب حتى لا توجد قطرة دم واحدة في وجهه؟!.. حتى إنَّ عينيه صفراء كوجهه دائما.. أظنه مريضا مرضا مزمنا لا شفاء منه.

– هو ليس مريضا.. ولكن شكله يوحي بأنه مريض.. فقط هو فارق العمر.....

وقاطع علي أحمد قائلا:

– زينب معها حق في ذلك.. لكن يا أختي العزيزة إنَّ العمر يمضي.. وأكثر الشباب ماتوا في الحرب.. ألا تنظرين إلى العوانس وهن يملأن الطرقات؟

– لماذا لا تقولانها صريحة بأنكما تريدان التخلص مني حتى تتزوجا أنتما سريعا؟

فقال علي متأثرا:

– معاذ الله.. لو هذا يرضيكِ فاعلمي أننا لن نتكلم بهذا الموضوع بعد الآن.

وفي الجانب الآخر جلست أم الأصفر منذ عادت حائرة متوترة ناقمة على زينب، وكأنما تفجَّر بداخلها بركان مِن الحقد والكراهية والاستغراب، وبدأت تدخن سيجارة تلو الأخرى، وتنفث الدخان بقوة في وجه زوجها الجالس أمامها كأنما تطرد إليه الغضب الكامن في نفسها، أو ربما تتخيل هذا الدخان صفعاتٍ قويةً على وجه تلك الفتاة المغرورة المتعجرفة كما رأتها، وزوجها يتلقَّى دخانها في صمتٍ، وأحيانا يبتلعه دون اعتراض، وهو لا يستطيع أن يحادثها في شيء وهي بتلك الحال، يُقال في هذا الحي ويُذاع تكرارا إنها ضربت زوجها هذا ذات يوم لأنه لم يوقظها مِن نومها لتشاهد مسلسلها المفضل.. فهل يجرؤ هذا الزوج المضروب سابقا لسبب تافهٍ أن يسألها عن شيء وهي في حالتها الجادة تلك؟!

وكان الأصفر قد خرج ليأتي بهديةٍ جميلةٍ لزينب، لكنه قبل خروجه ظلَّ يرقصُ في البيتِ وهو يحلق ذقنه ويقلم شواربه الصفراء ويعدل مِن تسريحته مرارا، ثم صار يتمشى داخل البيت جيئة وذهابا أمام المرآة، ويختلس النظر مِن فوق سور البيت المطل على منزل زينب وهو يردد أغاني العشق والهيام.

وها هو قد عاد حاملا في يديه الكثير.. دخل فوجد أمه جالسة وبيدها سيجارتها، والدخان يغطي وجه أبيه المغلوب على أمره أمام عنفوان زوجته، وما زال دخان سيجارتها تنفثه بحرقة على وجه الرجل.. قالت للأصفر دون تردد بصوت مخنوق ما إن رأته:

– انسَ أمر زينب يا ولدي.

– لماذا يا أمي؟

خرجتْ الكلماتُ منه بصوتٍ متهدجٍ وهو يتطلع إليها مذهولا مع ما يساوره مِن احتمالية أنها تمزح معه كعادتها أحيانا في مثل هذه الأمور، فأعادت أمه جادة:

– قلتُ لك انسَ الأمر وكفى.

فقال لها وهو يحاول التجلد:

– أريد أن أفهم يا أمي ماذا حصل معكِ هناك؟

– أنتَ أكبر منها بكثير ولستَ متعلما مثلها.. هذا ما قالته.. ولكنني سأزوجك أجمل منها وأعلى تعليما وأرقى شهادة مِن أفضل الجامعات العراقية.. أقسم أني سأفعل ذلك.. لكن عليكَ أنتَ التحلي بالصبر وعدم الحمق.

رمى الأصفر ما بيديه جانبا، وشعر أنه على وشك الدخول في غيبوبة مِن تلك الكلمات القليلة التي سمعها فعصفت به وبقلبه وعواطفه وعقله، وآلمه أيضا خذلان صديقيه له، فأين موافقة علي وكلامه الجميل له حين حادثه في المقهى؟!.. هل غيَّرتهم الحرب كما غيَّرت الكثير مِن الأشياء، ليسوا كما كانوا قبل ستة أعوام.. لقد اختلفت الموازين التي كانت شبه ثابتة لكل شيء، واختلفت معها كلُّ المبادىء والحسابات.

ثم جلس الأصفر وحده يفكر بهذه الطريقة، ويعتب على كل شيء بسبب وبدون سبب، يعتب على نفسه، ويعتب على صديقيه، ويردد ذاهلا قول علي له بأنه يفتخر به صديقا وصهرا.

وقرَّر على الفور أن تكون كرامته فوق كل الاعتبارات، فالإنسان بدون كرامة لا يساوي شيئا، تعلَّم ذلك بالوراثة ثم المعايشة عن أمه.. قال في نفسه: (أنا متلهفٌ لها ولكن كرامتي فوق جمالها.. لقد بالغت في حبها.. وأرسلتُ أمي فلاقت ما لاقت هناك.. لكن كلَّ شيء بقدر).

وعزم عزما شديدا على أن ينسى الموضوع ، وعليه أن يقاطع حفظا وصونا وانتقاما لكرامته المهدورة، وليتمزق قلبه ألف قطعة، هذا الذي أذله وأضعف والدته القوية لديهم.

وسمعت أسماء بالخبر، فجاءت تعتب على أختها قائلة:

– لماذا رفضتِ الأصفر يا زينب؟

– لأنه أصفر.

قالتها وهي تضحك مستهزئة بينما كانت تنظف صحون العشاء مِن بقايا الطعام بعد ليلة طويلة مِن المجادلات التي لم تنجلِ عن طائلٍ منها، والتي انتهت بأن قال علي لأحمد:

– دعها فإن رأسها يابس وفارغ كرأس خالتي المسترجلة أم الأصفر.

وفي حديقة الدار في ظلال شجرة التوت العملاقة، ومع رائحة الأزهار بكلِّ صنوفها التي تعبق بالمكان قدمت لهم زينب الشاي المعطر بالهيل المجهز

على نار الفحم، وتحدثوا حديثا آخر عن أحمد، فإن له خطيبة تنتظر الزواج، وقد جاءت أمها فلمَّحت لهم عن أنَّ فترة الخطوبة قد طالت كثيرا.. قال أحمد:

- كنتُ أنتظر زواج زينب لأتزوج بعدها.

- حقا ماذا ستقول لحبة الحنطة تلك التي بقيت حولين كاملين تنتظرك؟

قالها علي، فضحك الجميع، وقالت زينب بين الجد والمزاح:

- ما الضير في أن تتزوج مِن حبة الحنطة وأنا معكم هنا ببيتِ أبي وأمي يا أخي؟

وإنَّ أحمد نفسه يعلم أنَّ خطيبته أحلام وقحة نوعا ما، ولديه هواجس كثيرة تجاهها خوفا مِن أن تحدث مشاكل مع زينب، وخاصة أنَّ أم أحلام تضع أنفها بكلِّ شاردةٍ وواردةٍ، فضلا عن لسانها الطويل تكرارا، فقال:

- إن البيت لا يكفي.

فقاطعته زينب قائلة لعلي:

- يا علي.. مِن الممكن أن يأخذ أحمد الغرفة الكبيرة ليتزوج بها.. ولتأخذ أنتَ غرفة أحمد.

- وأنتِ.. أين ستكونين مِن هذه القسمة الجائرة؟

- ليست لي أغراض كثيرة.. فقط هذا الدولاب الذي ورثته عن أمي.. سأضعه تحت السلم وأنام بجانبه.. إني أعشقه.. ففيه عطر أمي وملابسها..

إنني ما زلت أحتفظ بحبات الزبيب خاصتها وأعواد القرفة وكحل عيونها الأسود.. هذا ما يهمني مِن الدنيا.

وكانت أسماء تسمع هذه الكلمات حزينة، وقد سالت الدموع على خديها دون أن تتحدث، ولم يقتنع بما قالته زينب، ولكن زينب أصرت على وجهة نظرها، ولأنها طيبة القلب قالت هذا الكلام وبقلبها منه ألمٌ وغصةٌ، وأذعن لها في النهاية، ولاذت.. قال علي:

- إذن سنذهب غدا جميعنا إلى بيت حبة الحنطة لنتمم الزواج.

وتوجهوا عصرا إلى بيت أحلام، واستقبلتهم أمها أطيب استقبال، وفرحت بقدومهم وكأنه العيد، وتمَّ الاتفاق على أن يكون انتقال أحلام لبيت زوجها بعد عشرين يوما، وفي صباح اليوم التالي بدأوا بترتيب المنزل وصبغه وتغيير الستائر وتنظيف السجاد.

***

الفصل الرابع

جاء يوم العرس وحضر الجميع، أسماء وزوجها وأصدقاء علي، وبالطبع لم يحضر الأصفر وأمه التي ما زالت تحيا مع صدمتها، تلك التي ألهبت كبدها ونفسها الأبية، والأكثر قساوة أنَّ أحمد وعلي لم يطيبا خاطر الأصفر بكلمة واحدة، حتى إنهم لم يكلفا نفسيهما بإرسال بطاقة دعوة له، وكانت أمه تنظر إلى حفلة العرس مِن فوق سور البيت وهي حزينة لما آلت إليه علاقتهم بهذا البيت بعد أن كانوا أهل بيتٍ واحدٍ تقريبا عندما كانت أم زينب علي قيد الحياة.

انتهى يوم العرس، ودخل أحمد وزوجته إلى غرفتهما، بينما نامت زينب ليلتها تلك تحت السلم لأول مرة في حياتها، وعلى الرغم مِن فرحتها بزواج أخيها أحمد المحبوب جدا إلى قلبها إلا أنها أحسَّت بإحساسٍ غريبٍ جديد، إحساسٍ بالضياع، نعم إنها ضاعت وستضيع أكثر مِن ذلك في المستقبل القريبٍ المجهول.. هذا ما صارت تفكر به.

وإنها لتسمعُ ضحكاتِ العروسين وتشعر بمظاهر فرحتهما، وتُنصِت إلى مزاحهما في ليلتهما الأولى، فلا تعرف ماذا يعتريها مِن مشاعر، هل هي فرحة؟.. هل هي حزينة؟.. لم تتوقف عن أن تقلب صفحات الماضي، وعن أن يأتيها أفكار سوداوية تجاه المستقبل، وآهات وتنهدات.

ونام العروسان، ولم تنم زينب تلك الليلة، أحسَّت بضيقٍ في التنفس، فنهضتْ واستعاذت بالله مِن الشيطان الرجيم، وقرأت المعوذتين وآية الكرسي، ونامت ليلتها.

واستيقظ علي مبكرا كعادته، فذهب إلى زينب ليوقظها مِن نومتها القلقة.

- اصحي يا زينب .

- ماذا هناك؟

سألته وعيناها قد بدت ذابلتين مِن أثر السهر والسهاد والقهر، فأجابها:

- غدا هو موعد التحاقي بالجيش.. جهزي ملابسي ورتبي حقيبتي وأعطي بدلة مِن بدلاتي العسكرية لهذا العريس المجنون الذي أحرق بدلته.

كانت تريد النهوض مِن فراشها، لكنها لم تستطع بسبب الإرهاق والحزن والخوف والقلق، وهي تتوجس مع ذلك الكثير مخافة مِن تلك العروس وأمها سليطة اللسان، لكنها ظلت تقول في نفسها: (اطمئني قد يكون التأخير في حصولك على ما تريدين يا زينب لخير أراده الله لكِ.. لا تتعجلي وتفاءلي.. فقد ينتظرك مِن النعم أكثر مما تريدين.. فليس هناك أعظم مِن فضل الله للصابرين والصابرات).

وأخيرا، ومع كل هذه الهواجس نهضت وتوجهت إلى المطبخ، وظهر العروسان وهما مبتسمان بعد ليلةٍ يبدو أنها كانت جميلة ومثيرة، وكيف لا وهي أجمل ليالي العمر التي تكون مميزة للعريس، وقلقة للعروس؟!

جلس الجميع على مائدة الطعام باليوم الأول لأحلام في بيتهم، فهنأوا العروسين بالزواج، وتمنوا لهم السعادة والهناء والذرية الصالحة، وجلسوا يتذكرون حفلة العرس، ومَن كان يرقص، ومَن كان يصفق ويزغرد، ومَن أكل كثيرا وشرب كثيرا.

- إني رأيتُ في الحفلة فتاة جميلة جدا ترتدي فستانا زهريا فضفاضا.....

قالتها زينب، وقاطعتها أحلام:

- إنها ابنة خالتي الجميلة صاحبة الأخلاق العالية ابنة الاصول والحسب والنسب.

وبدت على زينب علامات الاستغراب مِن كلمات أحلام وسرعة إجابتها، وسألت علي:

- ما رأيك يا علي بها؟

- وما شأني؟.. لِمَ تسألينني؟!

- أقصد أن نخطبها لكَ.

- كلا لا تناسبني.. ولستُ أفكر في الزواج في الوقت الحاضر.

- لماذا؟

– هل هو تحقيق منذ الصباح؟.. لا أريد الزواج الآن وكفى.

وعلى الرغم مِن رفض علي لمبدأ الزواج إلا أنَّ التفكير في هذا الأمر قد شرع يشغل حيزا كبيرا في رأس أحلام، والخطط قد بدأت لديها لإيقاع علي في شباك ابنة خالتها حتى تكونا معا في هذا المنزل.

أومأت أحلام برأسها لزوجها أحمد، وفهم أحمد الإشارة.

– سأسأل عنها عمتي أم أحلام عندما تأتي لزيارتنا.

– لا تسأل أي أحد يا أخي.. إني أرفض فكرة الزواج الآن تماما.

والتحق علي بالجيش، ثم التحق أحمد بعده بثلاثة أيام، وقد أوصى زوجته بأن تبقى في البيتِ مع زينب، وألا تفارقها، وكان يخيل إليها أنها سترجع إلى بيت أهلها عندما يتوجه الزوج إلى العسكرية، ولا تعود إلا عندما يعود لتبقى حبيسة المنزل مع زينب، لكن يبدو أنَّ بوادر صراعٍ مبكرٍ قد صارت تلوح في الأفق بين أحلام وزينب لأتفه الأسباب.

كانت أحلام فتاة جميلة، وأنيقة في كل شيء، وهي للحق أجمل مِن زينب بكثير، فكانت الثانية العزباء تغار منها بجنون الغيرة القاتلة، وفي بعض الأحيان كانت تأكل وحدها لأنها لم تُطِقْ أن تحتمل النظر في وجهها النضر وهو مكسو بكحل العيون وجمالها، وكل ألوان أيام العسل الفتاكة والمثيرة.

وجاءت أم أحلام عصر أحد الأيام، وجلست مع ابنتها العروس في غرفة أحمد على سريرها ذي الفُرُشِ الحمر والوسائد الوردية، وبدأتا تتحدثان بصوت خافت وكأنه دبيب نمل.

وقامت زينب بواجب الضيافة والأصول وهي تحمل معها كؤوس العصير.. طرقت الباب الذي كان موصدا ثم دخلت، فنهضت أحلام لها، وأخذت العصير، ثم أغلقت خلفها الباب مجددا دون أن تدعوها للجلوس، فتولد شعور جديد لدى زينب بأنَّ أواخر الأمور لن تجري إلى خير إن كانت البداية هكذا، وأسرَّت في نفسها أن تخبر أحمد بذلك فور أن يعود، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وفي اليوم التالي صحت أحلام مبكرة، فوجدت زينب في المطبخ تعد الطعام.. قالت:

– إنَّ رائحة البيت كريهة يا زينب.. ما السبب برأيك؟

– ماذا تقولين؟!.. أي رائحة؟.. وأين؟

سألت أسئلتها بتحفز ظاهر، وقد جن جنونها، فقالت أحلام:

– إنَّ الرائحة في الصالة على الرغم مِن أنَّ الصالة كانت نظيفة وأطيب رائحة مِن كل غرف المنزل قبل أن تنامي قريبا منها تحت السلم.

كانت هذا الكلمات بمثابة رصاصة اخترقت صدر زينب التي أعادتها على أحلام:

– إذا كانت هناك رائحة كريهة فهي في غرفتك.. لأنكِ منذ ليلة دخلتكِ لم تفتحي النوافذ كي تدخل الشمس.

– لماذا تتكلمين هكذا؟.. أنا لم أقصد الإساءة لكِ يا زينب.

وبدأت أحلام بالبكاء المصطنع بكاء بلا دموع، فقالت زينب:

– كفي عن المراوغة.. فأنا لا أعرف اللف والدوران والكذب.. وعندما يعود أحمد سأخبره بكلامك الفظ هذا.

لكن أحلام سرعان ما كشَّرت عن أنيابها إذ لم يفلح البكاء، وقالت بلهجة غاضبة:

– لماذا تكرهينني؟!.. صدقيني لا أعرف.. سأخبر أمي فورا.

وركضت إلى الهاتف واتصلت بأمها، فحضرت وأختها الكبيرة بعد نصف ساعة، وبدأنَّ بهجوم مصحوب بعبارات نابية لم تسمع مثلها زينب في حياتها، وخاصة الكلمات التي كانت تطلقها أخت أحلام الكبيرة بالعمر، الصغيرة بالعقل والإدراك.

وبقيت زينب صامتة خائفة وكأنَّ الدنيا قد صارت غيمة سوداء مظلمة، ولم تنبس ببنت شفة، أو تعرف كيف تجيب تلك الكلمات النابية المتتابعة على أذنيها مِن النسوة.

وأحسَّت بالرعب وهي تنظر لأخت أحلام، فقد كانت كالخنزير الجائع الذي يريد أن يأكل كلَّ شيء أمامه، وأسمعتها كلماتٍ فاحشةً ومؤلمةً بلهجةٍ غاضبةٍ:

– اخرسي.. هل تحسبين نفسك في غابة؟.. أم تحسبين نفسك سندريلا؟.. أم أميرة القصر والجميع خدم عند أهلك؟

وركضت صارخة إلى غرفة علي، وأغلقت عليها الباب خوفا من سطوتهن، فهن ثلاث وهي وحدها، وما أخطر ساعاتِ الغضب والشر!

وفي هذه الأثناء كان هناك مَن يسمع الصراخ ويتشفى بزينب، إنها أم الأصفر، قد سمعت الصراخ.. نعم يا زينب هذا ما تستحقين، كلي مما زرع غرورك.. هكذا قالت، وهكذا كانت تتمنى.. يسرها كثيرا أن تُضرَب زينب بالأحذية ليكسر أنفها المتكبر.

وبقيت زينب محبوسة في غرفة أخيها علي إلى الليل، حيث خرجت الاثنتان راجعتين إلى بيتهما، وأخذتا أحلام معهما، عرفت زينب ذلك حين سمعت صوت طرق باب الدار خلفهن.

خرجت إلى الصالة، وقد كظمت غضبها وحزنها، وبقيت وحدها خائفة وجلة، وقد أخذ منها الرعب مأخذا، فاتصلت هاتفيا بأسماء، فأجاب زوجها الطيب:

– أسماء مريضة منذ يومين.. تعاني مِن برد شديد.. لكن كيف حالك أنتِ يا زينب؟

وانخرطت زينب في البكاء فسألها:

– ما بالك تبكين يا زينب؟.. هل حصل مكروه لأحلام؟

فتمتمت بصوت لم يخلُ مِن ضيق:

– كلا.

– إذن تكلمي.

– تعال خذني مِن هنا فورا.. فأنا الآن وحدي في المنزل.

أغلق الهاتف بينما شرعت أسماء تصيح عليه:

- مَن المتصل؟

لم يرد عليها، وتوجه فورا، وأتى بزينب إلى منزله رغم الأمطار الكثيفة وانقطاع التيار الكهربائي ومفاجآت الطريق، وخاصة في الليل.

وأقبل الأطفالُ يركضون ليقبلوا خالتهم الوحيدة، فقبلتهم واحتضنتهم إلى صدرها وقلبها، وجاءت أسماء وكانت حرارتها مرتفعة، فاحتضنتها فبكت، فسألتها مندهشة:

- ماذا بكِ يا زينب؟.. هل حصل مكروه لعلي أو أحمد في الجيش، هل أتاكِ مكتوب من أحدهما؟.. تكلمي، لقد أوقعتِ قلبي.

- لا لم يحصل شيء مِن ذلك.

- ماذا إذن؟

وحكت زينب القصةَ كلها، وكيف أنها نجت بأعجوبةٍ مِن بين مخالب المتوحشة المفترسة أخت أحلام، وبقيت على تلك الحال في بيت أختها معززة مكرمة بضيافة زوج أسماء، ذلك الرجل الطيب الكريم الذي لا يرفض لها طلبا إلى أن عاد علي وهو يرقص فرحا، حيث جاء بخبر سار، هو تسريحه مِن الجيش، وهذه الانتقالة الرائعة مِن حياة الحروب والبؤس والشقاء إلى حياة الرخاء والأمن والاحترام، فقد آن الأوان ليعود إلى الحياة المدنية مجددا، ويزاول عمله القديم كمهندس في شركة بناء الجسور.

وصل إلى المنزل ليلا، وطرق الباب ولم يجد أحدا، ففتح الباب ودخل إلى داخل الدار، وصاح على زينب، فلم يجدها، فاتصل هاتفيا على بيت أسماء، فأجاب زوجها، بأن يظلَّ في مكانه، وسيأتون جميعا إليه.

أخبرت زينب أخاها القصة كاملة فقال:

– عندما يعود أحمد سنخبره بذلك ليرى ما يراه مناسبا.. أما عني فقد تسرحت مِن الجيش نهائيا وسأظل معك دائما في البيت إن شاء الله.

نهضت زينب على طولها تطلق الزغاريد لأول مرة منذ وفاة والدتها، وتصفق وترقص، وقد نسيت الهم والحزن الذي اعتراها، وقد كانت فرحة لا توصف مِن جانب أهل كل جندي يتسرح مِن الجيش، إنها بمثابة إطلاق سراح رجل مِن سجن موحش يقضي به أيامه الأخيرة قبل تنفيذ حكمٍ بالإعدام.

وبعد خمسة أيام عاد أحمد مِن الجيش مسرورا، ويحمل معه بعض الحلوى للاحتفال، ولقد علم بخبر تسريح دفعة مواليد علي في المعسكر.. دخل إلى الدار وهو يرقص ومعه الجريدة الحكومية التي نشرت الخبر.

وما إن صار وسط البيت حتى صاح على أحلام لتأتي، فتوجه ناحية غرفتها، فوجدها موصدة، فالتفت ونظر يسأل عليا وزينب:

– ماذا حلَّ بكما؟.. لماذا أراكما هكذا؟.. أين أحلام؟

– لقد حدثت مشكلة بينها وبين زينب في غيابنا.. وقد جاءت أمها وأخذتها معها.

– ماذا حدث بالضبط؟

وقصَّت زينب عليه كلَّ شيء وهي تبكي وتنتحب وتردد أنها صارت مسكينة مستضعفة منذ ماتت أمها، وحاول علي إسكاتها إشفاقا على أخيه أحمد الذي وصل للتو متعبا مرهقا.. وقال أحمد في نفسه: (هذا ما كنت أخافه قد حدث في غيابي.. ننتهي من هم الحرب لنعيش مع هم النساء) ثم صاح لهما:

– يجب أن أعاقب أحلام وأحطم رأسها على ما فعلت بأختي المسكينة اليتيمة.. فلا تحزني يا زينب.. سنأخذ حقك منهن.. سأنتقم لكرامتك مِن هذه الوقحة سليطة اللسان.. ومِن تلك العجوز الشمطاء.. ومِن زوجتي تلك البائسة الحمقاء .

قال ذلك، ثم فتح باب حجرته، ومكث بها مهموما غاضبا، فقصده علي للتخفيف عنه:

– لا تقهر نفسك يا أخي.. النساء هكذا طبعهن يفتعلن المشاكل ويهولن الأمور البسيطة.. يتشاجرن ويمزقن ثياب بعضهن وهن يذرفن الدموع ثم يتصالحن في الحال.. هيا انهض لنذهب إلى المسجد حيث تقام فيه ندوة دينية بمناسبة المولد النبوي في هذه الليلة المباركة الصافية.

ذهبا، وفي هذه الأثناء عادت أحلام بصحبة أمها إلى المنزل، وقد سمعتا بعودة أحمد مِن الجيش عن طريق بعض جيرانهم الذين عادوا معه.. أوصلتها لباب غرفتها ورجعت مسرعة، وبقي أحمد يفكر وهو بداخل حرم المسجد في طريقة لمعاقبة أحلام: (لن أذهب إلى بيت أهلها طول فترة الإجازة).

حدَّث نفسه بذلك، ولم يكن يدري أنها في نفس اللحظة كانت تجلس ماكرة على سريره وهي تلبس له أجمل ألوان الملابس الداخلية لتثيره وتوقد غيرة زينب مِن جديد.

وعاد فحدَّث نفسه: (سأهجرها حتى تعتذر لزينب.. إنها أفضل عقوبة.. الهجر في المضاجع.. ولكي تحسب لي ألف حساب وحساب قبل أن تتجاوز في حق أختي اليتيمة المسكينة).

وانتهت الندوة الدينية، وخرج الجميع مِن المسجد، فقال له علي:

- سأذهب إلى المقهى.. تعال معي يا أحمد.

- لا يا علي.. ليس لي مزاج.. اذهب أنتَ وخذ معك الأصفر.

- صحيح كيف حاله؟.. والله إني خجل منه ومِن أمه.. فبأي وجهٍ أزوره؟!

رجع أحمد إلى البيت وهو لا يزال يشعر بالغضب مِن زوجته أحلام.. دخل وإذا برائحة أحلام تعبق في أروقة المنزل مع باقة عطرة مِن الزهور موضوعة على باب غرفته، فتهلل وجهه، وفتح الباب ودخل، وإذا بأحلام جالسة على السرير كأجمل أنثى، والابتسامة تعلو وجهها مع غمزة شهوانية بطرف عينها اليمنى، مرتدية ملابس النوم الشفافة فقط ذات اللون الأسود فوق جسمها الأبيض الرقيق.. ركضت إليه واحتضنته وقبلته.

واستنشق الزوج عطرها ناظرا إلى عينيها اللامعتين بآثار الشهوة الشديدة والرغبة الفائرة، فتحسَّس تضاريس جسمها بأناة وتلذذ، ولم يستطع المقاومة،

حيث طارت مِن رأسه كل أفكار الغضب والهجر والانتقام، وتبخَّرت مع ذلك دموع زينب التي كانت مسكينة يتيمة منذ لحظات، فأُحكِم غلقُ الباب، وأُطفِئتْ أنوار الغرفة إلا مِن مصباح النوم الأحمر الخافت، ونُثرتْ بعض الزهور على فرش السرير والوسائد، ثم نَثرَت الزوجة الحسناء الماكرة شعرها وجسمها ومفاتنها تحت يدي وقبلات فارسها المغوار ذو الرغبات الجامحة، فاعتلاها كفارس يتقن جيدا ترويض الحسناوات المارقات.

وتلك الأخت المعذبة حين اعتلتها شتائم ذوات الألسنة اللاسعة السليطة صارت تقول في نفسها وعلى شفتيها مظاهر الخسران: (لقد انتهيتُ أنا بنظرة مِن أخي لثوب العروس الماكرة.. نعم هي نظرةٌ واحدة أنست أحمد أخته اليتيمة المسكينة).. كانت ضحكاتهم تملأ الغرفة وتخترق الأبواب الموصدة لتصل إلى أذن الفتاة.

ووصل علي إلى المقهى، فوجد الأصفر هناك.. احتضنه وقبَّله، وباركا لبعضهما التسريح مِن الجيش، فقال علي مازحا:

– هل ما زال قلبك الأسود حاقدا عليَّ يا أصفر؟

– أجل نوعا ما.

– إذن سأقتلع قلبك هذا بالسكين وأرميه للكلاب تأكله وأضع لك بدلا عنه قلب حمار ينهق.. هذا لكي تنسى.

فضحك الأصفر ، ونسي غضبه، وتسامرا كثيرا وتضاحكا حتى اقتربت الساعة الحادية عشرة، فعادا إلى الحي حتى وصلا أمام البيت الذي تسكنه زينب، فقال الأصفر في نفسه:

(وما كنت أهوى الدار الا بأهلها على الدار بعد الراحلين سلام).

وأحسَّ به صديقه علي، فقال:

– قد يكون التأخير في حصولك على ما تريد لخير أراده الله لك يا أصفر.. اصبر وتفاءل ولا تستعجل.. فقد ينتظرك مِن النعم أكثر مما تريد.. فليس هناك أعظم مِن فضل الله.. خذني مثلا.. ما زلت بلا زواج ومع ذلك متفاءل بالحياة.. ولا أهتم لمن يكرهني أو يحبني.. لأنَّ مَن كتب لي أقداري هو إله رحيم حكيم.

أحسَّ الأصفر بصدق كلمات صديقه، وقال في نفسه: (الحياة مستمرة سواء ضحكت أم بكيت.. صبرت أم جزعت.. فلن أحمل نفسي هموما وأوجاعا وتفكيرا زائدا بمن لا يستحق ولا يقدر.. فلن أستفيد شيئا ولن أغير شيئا).

وعادت زينب إلى مضجعها وهي تنظر إلى دولاب أمها وتهمس بشفتيها:

– حتى وإن كان طيفك بعيدا عني سأحتضن روحك بأضلعي يا أمي.

وكانت هذه الأيام شاقة مملة تعيسة على زينب، ولا يكاد ينتهي النهار حتى يأتي الليل أطول وأشقى أفكارا وحسرات متوالية.

***

الفصل الخامس

ما إن فتحت عيونها على ضوء الصباح الباكر حتى ذهبت زينب تشتكي همها وما حدث معها، وخذلانها مِن قبل أحمد، وعيناها تترقرق بالدموع، فقال لها زوج أسماء:

- يجب أن تدركي حقيقة أنَّ جميع الخلق يقبعون داخل دوائر للتغيير.. وأخواكِ كالجميع.. فلا تنصدمي أبدا.. فهذه هي الحياة وهذا هو واقع البشر.. وخاصة أنَّ أحمد يعشق زوجته.. وهي تعرف نقطة ضعفه وتقوده مِن خلالها.

وعلى الرغم مِن كلمات زوجها الشافية، فقد ظلَّت تندب حظ أختها، وخاصة أنَّ قطار العمر يمرُّ وزينب تكبر، وأصغر فتاة في الحي قد تزوجت وهي باقية، وصارت تخاف أن يُطلَق عليها لقبُ عانس، فلا يفارقها أبدا.

أما عن علي، فقد قرر السفر إلى الشركة التي كان يعمل بها في أقصى الجنوب، فحزم حقائبه، وأوصى أحمد أن يهتم بزينب، وأن يصلح بينها وزوجته، بينما كانت أحلام تسترق السمع وهما يتكلمان، ثم جاءت بالشاي.

– إنَّ علي سيسافر إلى عمله الجديد ويوصيك بزينب يا أحلام.

– أخبروها هي لتهتم بي.. فأنا ما زلت ضيفة في هذا البيت.. وهو بيتها قبل أن يكون بيتي.. وأنا رغم كل شيء سأصالحها وأعتذر لها إكراما لكما.

وعادت زينب برفقة أسماء، وركضت إليها أحلام تقبلها وتعتذر لها أمام الجميع، وأخذت منها بعض الحاجيات التي اشترتها في طريقها وهي تمعن في المكر والكيد، وقال أحمد:

– ألم أقل إنَّ زوجتي طيبة وعاقلة.. أرأيتَ يا علي؟

وابتسمت زينب ابتسامة مصحوبة بالخوف مِن هذه الحركات، وهمس علي في أذن زينب وقد أخذها جانبا:

– ماذا تقولين؟

فهزت رأسها أسفا قائلة له:

– انتهى الأمر.. لقد خرجت هي وزوجها مِن حياتي.

وإنها لأول مرة تتحدث عن أحمد هكذا دون أن تقول أخي، فهمس علي:

– أنتِ رأس البلاء يا زينب يا صاحبة الرأس اليابس.. لا تتحيزي لنفسك هكذا دائما.. فأنت لستِ ملاك.

قالها وهو مبتسم حتى لا يُغضِبها أو يُحزِنها، ثم سلَّم عليهم جميعا يودعهم، وذهب في طريقه ليسلم على صديقه العزيز ورفيق دربه، وقد أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها.

دقَّ الباب، فقال الأصفر ما إن رآه:

– ما هذه الحقائب؟.. لا تقول إنك نويت الذهاب بهذه السرعة إلى العمل؟

– أنتَ تعلم أني أعشق عملي وأشتاق إلى رفاقي.

– ولكن هلا ارتحت قليلا؟

– راحتي في العمل.. وأنا مهندس، والمهندسون لا يعرفون راحة أبدا.. ثم يجب أن أشعر بذاتي وكياني.. وبالطبع لا يغيب عنكَ أنَّ الحرب دمَّرت أغلب جسور بلدنا العزيز.. يجب أن نعمل ليلا ونهارا لإعادتها.. فلا قيمة لشعب بدون وطن آمن مستقر.

– فعلا معك حق.

– ونحن قد قاتلنا مِن أجله يا أصفر.. ألا نعمل في بنائه؟.. مَن يحب وطنه عليه عدم إضاعة دقيقة واحدة في الأمور التافهة.

فصمت الأصفر لدقيقة، وفكر وقرر فجأة، فقال:

– انتظرني لأذهب معك.. فقد أرسلوا لي أيضا لأعود عاملا معهم.. لكنني كنت مترددا.

– إذن هيا يا صديقي.

ودخل الأصفر مسرعا إلى غرفته ليحزم حقائبه، وهو يصيح على أمه:

– أين ملابسي؟.. أين أدوات الحلاقة؟.. أين مقصاصة الأظافر؟

– ماذا دهاكَ يا ولد؟

– أنا مسافر يا أمي.. سأعود إلى شركة بناء الجسور التي كنت أعمل بها مع علي قبل نشوب الحرب اللعينة.

– هل جننتَ؟.. ماذا تقول؟

– مثلما سمعتِ يا أم الأصفر.. هذا قراري.

– ألا تحسب لأمك أي حساب؟.. لِمَ لم تخبرني قبل ذلك بيومين على الأقل لنتناقش؟.. هل بمجرد أن ترى صاحبَك يذهب عقلك معه؟!.. أنسيتَ أنه لم يدافع عنك بكلمة واحدة أمام أخته العنيدة؟!

وظلَّت تثرثر بأعلى صوتها وبكلماتٍ نابيةٍ وقاسيةٍ لكي يسمعها علي، فيغضب ويذهب بدونه، ولكنَّ صاحبه صاحب قلب كبير وطيب، ويتفهم مثل هذه الأقوال، ويحب الأصفر كثيرا.

أمسك الأصفر بيدها:

– أمي أرجوكِ.. سأقول كلمة واحدة فقط وعليكِ ألا تعترضي.. سأذهب مع علي.

– مِن أين امتلكت هذه الشجاعة؟

قالتها بنبرة صوتٍ قوية أيقظت والده النائم، فقال لها:

– اسمعي هذه الكلمات يا أمي.. إنَّ أغلب جسور بلدنا قد دمرتها الحرب.. يجب أن نشارك جميعا في تعميرها.

قاطعته قائلة:

- وزواجك؟

- اتركي هذه الأمور التافهة.. فهناك الأهم.

- لقد بلغتَ الأربعين يا مجنون.

- كلُّ عمري فداء للوطن.

- اذهب اذهب .. وأنا أعرف أنكَ متذبذب وليس لك رأي محدد ثابت.. تكون راضيا في الصباح ثم ساخطا في المساء.. سيتغير كلُّ ذلك قريبا.

وركع الأصفر على ركبتيه أمامها يستعطفها، ثم قبَّل رأس والده المقعد، وطلب منه الدعاء بالتوفيق، فقال له مبتسما:

- أنتَ على حق يا ولدي.. أنا فخور بك.. وأسأل الله لكَ السلامة.

واستدار الأصفر لعلي قائلا:

- ليس هناك يا علي أحد يستحق كل شكري وتقديري غير أبي هذا الطيب.. في كل المرات التي نجوت فيها مِن الموت كان بسبب دعاء أبي ورضاه عليَّ.

وتدارك نفسه حين رأى عيني أمه البارقتين فأكمل:

- وأمي أيضا يا علي!.. ليس هناك أحن مِن قلبها رغم أنها تبدو شريرة جامدة.

فبكيت أمه، وخرجت وراءهما تحمل دلو ماء تصبه خلفهما، وهي تغمغم بكلماتٍ كثيرة.

ونام الجميع في البيتين المتجاورين بعد يوم مرهـق، ثم أحسَّت زينب وقع قدمين تدخلان إلى الحمـام فجرا.. كانت أحلام تغني وهي تستحـم، فقالت لنفسها:

- سأظلُّ في مكاني وكأني نائمة.. إنها تغيظني.

وخرجتْ أحلام مِن الحمام وهي تنظر تجاه مكان نوم زينب، وإنها على يقين أنَّ زينب يقظة تراقبها، فدخلتْ إلى غرفتها، وأيقظتْ أحمد وقبَّلته بصوت عالٍ لإغاظتها، وسألته وهي تغير ملابسها عن أي الملابس الداخلية يريد.. هل الحمراء أم السوداء؟.. لا شك في أنَّ السوداء أجمل، ذلك لأنها شقراء.. ومع الضحكات الخليعة المثيرة حدَّثت زينب نفسها:

- هل هكذا تفعـل العـروس مـع رجلها في شهـر العسـل؟!.. لا أعـرف.. ولكنـي أعتقـد أنهـا قلـة أدب وتربية.. بل إنهـا مريضـة نفسيا.. لكن ما بالـي أنا بما يفعلان؟!.. لن أُشغِل نفسي بتفاهات تلك الساقطة.

وقالت أحلام لأحمد:

- صحيح يا حبيبي.. نسيتُ أن أخبرك أن أمي اتصلت أمس وعزمتنا على الغداء جميعا.. زينب معنا طبعا.

- شكرا جزيلا يا حبيبتي.. ولكن دعيها لا تكلف نفسها.

- كيف تقول ذلك؟!.. أنا مشتاقـة كثيرا لأمي وأبي.

سمعت زينب حديثهما، فقالت لنفسها:

- لن أذهـب معهما.

وعلى طعام الفطور أخبرها أحمد بالأمر فقالت:

- لكني لا أستطيع الذهـاب معكما.. أنا مريضة.. أشعر بصداع.

- ولكن أمي أكَّدت عليَّ مرتيـن ألا أتركك إلا وأنتِ معنا.. ماذا أقول لأمي يا زينب؟

- قولي لها إني مريضة.

- حسنا كما تريدين.. لا أحد يجبرك على شيء لا تودينه .

(نعم.. إنه مكـر النساء.. مِن أين جاءت أمـك بهذا الود والاحتـرام تجـاه زينب).. قالها أحمد في نفسه.. (لـن أجبـر أختـي علـى شيء لا تنـوي فعلـه ولا تـرتاح له.. هي مَن تبقَّى لي مِن رائحـة أمي في هـذا المنـزل.. ولـن أعكـر صفو مزاجهـا بأشيـاء تـافهـة لا قيمـة لهـا.. أسـال اللـه لـكِ يا زينـب أن يـرزقك الزوج الصالح والـذريـة الصالحـة والحيـاة السعيـدة).

وجلستْ زينب في حديقة المنزل في يوم ربيعي رائع وهي تقول لنفسها: (إنهن ماكرات متبجحات.. وسينصرني الله عليهن وعلى مؤامراتهن الدنيئة).

وجاءت طرقاتٌ على الباب..

- مَن هناك؟

قالتها زينب بصوتٍ خفيضٍ يغلـب عليه الحيـاء والـرقـة، وإذا بصوتِ رجلٍ غريبٍ:

- أنا موظف الكهرباء.

- لحظة رجاء.

ودخلت مسرعةً إلى داخل المنزل لتضع شيئا يستر شعرها الحريري الفاتن.. فتحت الباب وإذا بشاب أنيق جدا يرتدي قبعة سوداء وربطة عنق حمراء ويضع وردة في جيب سترته الرمادية ورائحة عطره قد ملأت أرجاء المنطقة.

- صباح الخير.

- صباح الخير.. تفضل.

- أنا موظف قياس صرفيات الكهرباء.

- لكن لأول مرة أراك في الحي.

- كنتُ في الجيش.. وتسرحت بعد أن انتهت الحرب.. هل تسمحين لي بالدخول لقراءة المقياس؟

- بالطبع تفضل يا أستاذ.. وآسفـة للسؤال.

- هذا حقـك .

دخل إلى الدار وهو ينظر إليها بشكلٍ ملفت.. كانت نظراته تخترق جسمها مِن الأعلى إلى الأسفل.. قال:

- هذا المقياس عاطل عن العمل منذ عشرين يوما.

- والله لا أعرف.. اعذرني.

- أين رجل البيت لأتكلم معه؟

- لقد خرج مع زوجته.

- وماذا عنكِ أنتِ؟

بـدا لهـا السـؤال غريبـا، فسكتت لبرهة، ثم تشجَّعتْ سائلة:

- هل أنتَ موظف كهرباء حقا أم غير ذلك؟

- أجل موظف الكهرباء.. ولكن مع مَن أتحدث؟

- ماذا تريد؟.. أخبرني أنا.

- يجب أن يتبدَّل المقياس يا آنسة.

قالها في حذر، فقالت:

- حسنا.. سأخبر شقيقـي عندما يعود.

فناولها إيصالا، ثم توجَّه ناحية الباب، فبادرته:

- ألا تشرب ماء؟

قالتها وهي تبلـع ريقهـا لشـدة نظراتـه الثاقبـة، فأجابها:

- ولماذا لا أشرب يا آنسة؟

- لحظة واحدة.

ودخلتْ مسرعةً وهي لا تعرف ماذا أصابها، وكأنَّ سهما حريريا اخترق صدرها، وصارت تشعر بارتباكٍ مِن نوعٍ غريبٍ لأول مرة، وحرارة جسمها ترتفع رويدا رويدا.

شرب الماء، ثم شكرها وخرج، وتركها تموج في أفكارها: (شاب جميل ومثقف ولَبِق.. شعرتُ فيه بشيءٍ جميلٍ جعل قلبي يرف ويهفو للحياة.. وشكله يوحي بأنه أرقى مِن أن يكونَ موظف قياس صرفيات الكهرباء، ويبدو أنه ليس مِن نفس المدينة.. نعم إنه غريب، ولكن ذلك لا يهم في شيء.. المهم قلبه).

وقال عثمان في نفسه: (فتاة جميلة ومؤدبة وناضجة.. ولكن هل مِن المعقول أنها ليست متزوجة إلى الآن؟.. لقد قلتُ لها يا آنسة فعلمتُ أنها غير متزوجة.. فلو كانت متزوجة لقالت أنا سيدة.. إنها أجمل فتاة طلعت عليها الشمس.. ولكنها كبيرة في العمر.. ولكن ذلك لا يهم.. المهم قلبها).

ورجع إلى دائرته يجر الخطى وهو يفكر بها، ومرَّ عليه الليل وهو يفكر بها، فلقد شغلت قلبه مِن أول نظرة، فسبحان مَن خلق الحب لينقل الإنسان مِن حالٍ إلى حال!

لكنه عاد وقال لنفسه متعجبا وحالما: (اسكت يا عثمان.. أكلما رأيتَ فتاة جميلة قلتَ الحب قد حان وقته وإنه الحب مِن أول نظرة؟!.. لكني أكاد أوقن أنها ستفكر بي في سكون الليل العميق مثلما أفكر بها الآن.. وستظل يغالبها الأرق المحموم وترتقب بزوغ الفجر ليضيء دياجيها.. وأنا مثلها.. لقد تركت أثرا جميلا في نفسي بعد أن التقت عينانا أكثر مِن التقاء في تلك النظرات العطشى وفي تلك الدقائق القليلة).

وتراءت له عيناها وبعضُ خصلاتٍ مِن شعرها الذي رآه يلمع تحت أشعة الشمس مِن تحت الحجاب، وإنها لتختلفُ عن كلِّ الفتيات في

مدينته ومدينتها، وقد بدا له منها أنها صاحبة شخصية قوية واثقة مِن نفسها، وبنفس عمره تقريبا.

وجلست شاردة على مائدة العشاء، فلم تسمع قول أخيها:

- سألتحق بالجيش بعد يومين.. وأطلب منكما أن تكونا كأختين.

قالها أحمد، فأشارت أحلام برأسها توافقه، فالتفت ناحية زينب ينتظر تعقيبا منها، فنظرتْ له قائلة:

- ماذا؟

- أين كنتِ سارحة؟

- ماذا قلتَ يا أخي؟

كانت تفكر بموظف الكهرباء الذي شغل بالها وأضاء ليلها وأرشدها إلى طريق السعادة ببضع كلماتٍ ونظراتٍ، ولكنها تداركت الأمر قبل أن يلاحظا عليها أي تغيير، لكن يبقى أنها نسيت أن تخبرهم أنَّ مقياس الكهرباء عاطل ، ويجب استبداله.

وجاءت أسماء مع زوجها الطيب وأطفالها لقضاء بعض الوقت مع أحمد قبل أن يتوجَّه إلى الجيش، وجلس الجميع على طاولة الحديقة في ظلال شجرة التوت في ذلك اليوم الجميل يحتسون الشاي، ولاحظت أسماء شيئا غريبا بتصرفات أختها، وإنها لأول مرة لا تسارع باللعب مع الأطفال.

- ما بكِ يا أختي؟.. لماذا لا تتكلمين معنا؟

- لا شيء.

وفي الصباح جلس عثمان في استعلاماتِ الدائرة، ينتظر بلهفةٍ أي شخص مِن عائلةِ زينبَ ليأتي إلى الدائرة ليشتري مقياسا جديدا، لكن لم يأتِ أحدً، فابتسم فجأة، ونهض على الفور للذهاب إلى بيت زينب ومعه مقياس جديد لاستبداله بالقديم المتعطل.

وكان أحمد قد غادر إلى الجيش، وبقيت زينب وأحلام سويا في البيت، وزينب تُرهِف السمعَ إلى طرقاتِ الباب ودقاته، ولا تكف عن أن تردد: (ليته يعود مرة ثانية.. أين اختفى؟

ودقَّ البابُ، فركضتْ نحوه مسرعة.. نعم سيكون هو هذه المرة.. إني أشم عطره قد فاح في الأفق وعمَّ أرجاء المكان، وغلب كلَّ عطور الرازقي والكاردينيا والجوري.

فتحتْ الباب، وإذا به يقف أمامها مباشرة، وتقف أمامه مباشرة.. يا الله!.. ما لهذا الجمال!.. وكأنَّ قلبه يكاد يخرج مِن صدره لكثرة دقاته وسرعة ضرباته، فشعرتْ وكأنها تسمع دقات قلبه، وتحضنها بيديها، وتلعثمت وطارت كلُّ الكلمات مِن اللسانين والعقلين.. فقط تحدَّث القلبان حديث الصمت الرائع بين العاشقين في مثل هذه اللحظات.

صاحت أحلام:

- مَن هناك يا زينب؟

- الله!.. عاشت الأسامي يا زينب.. اسم جميل.

فقالت بخجل:

- تفضل ادخل يا أستاذ.....

- عثمان.

- تفضل يا أستاذ عثمان.

- قلتُ في نفسي لعلكم مشغولون لذا لم يأتِ أحد منكم لاستلام المقياس الجديد.. فجئت بنفسي لأركبه لكم مع أنه ليس مِن عملي أو اختصاصي.

- شكرا لكَ.. لقد أتعبناكَ معنا.

- بل شكرا للمقياس الذي كان سببا في أن آتي ثانية فأراكِ .

صمتت زينب قليلا، ونظرت إلى الأرضِ مع ابتسامة تعلو شفتيها، ولا تكاد تخفيها.

- سأعد لكَ الشاي بينما تؤدي عملك.

- لا أريد غير أن أراكِ أمامي.

ظلَّت واقفة ومتجمدة في مكانها مع شعور غريب جميل.. قالت:

- وماذا عساي أن أقول؟

وفي هذه اللحظات كانت أحلام تراقب مِن خلف فتحات النوافذ، وتتساءل: (مَن هذا الرجل الغريب الذي تتحدث معه زينب كل هذا الوقت الطويل؟!.. حسنا أيتها اللعوب الماكرة.. وقعتِ في مصيدتي).

- أرجوك لا أستطيع التكلم معك أكثر مِن ذلك.. فزوجة أخي هنا تتربص بي الظنون.. إنها تكرهني كثيرا.. وأنا فتاة يتيمة لا أريد أن أضع نفسي مواضع الشبهات.

- إذن نتكلم على الهاتف.

وناولها رقم هاتفه، وأنهى عمله ثم انصرف، ولم تتكلم أحلام بأي كلام مع زينب، ولكنها كانت تضمر الشر بداخلها: (هل هناك شيء بين هذا الشاب الغريب وبين هذه الفتاة البائسة؟.. إذا كان هناك علاقة غرامية بينهما فسأدمرها وأفضحها عند).

انتظرت زينب حتى تتيقن مِن أنَّ أحلام قد غابت في النوم لتهاتف عثمان، وكانت مترددة وخائفة، إنها لأول مرة تتكلم مع رجلٍ غريب، لكنه أسر قلبها وشغل عقلها، ولم يرفض عقلها ما يرسله له قلبها مِن مشاعرٍ وأحاسيس جديدة عليها.

ونامت أحلام بينما كانت تتابع فيلم السهرة على الأريكة الكبيرة الطويلة المقابلة لجهاز الهاتف المنزلي في الصالة، ثم صحت فجأة وتوجَّهت إلى غرفتها وسريرها، فحمدت زينب الله على ذلك، ثم تابعتها على أطراف قدميها لتتأكد مِن أنها نامت بالفعل.

أمسكت سماعة الهاتف مع ارتجافات يديها وقلبها، فتراجعت مع شيء مِن الخوف، وتسارعت دقات قلبها، ثم عادت فأمسكت سماعة الهاتف مجددا، ثم رجعت إلى غرفة أحلام لتتأكد ثانية أنها قد نامت، وإنها لأول مرة تشعر بكل هذه المشاعر، ثم تجلدت واتصلت وقلبها يدق مع كل رنة من رنات الهاتف، وأخيرا جاء الرد بصوتٍ هادئٍ وحنونٍ، ودخلت الكلمات القليلة الناعمة إلى قلبها قبل أذنيها.

- مساء الخيرات والجمال والصوت الملائكي.

لم تجب، وتلاشت كلُّ الكلمات مِن ذهنها، ولم يسمع عثمان منها كلاما، بل راح يشعر بدقات قلبها، فأردف:

– لقد ملأتني شغفا وحبا منذ رأيتكِ يا زينب.. لقد حان وقـت ولادة العشق الذي طال انتظاره.

فتهلَّل وجهها واحمرَّ ولم تجب، فأردف:

– روحي تفيض حبا وعشقا لكِ كما يفيض الفرات بمائه.. وإن بقلبي أشواقا ونيرانا لا تنطفىء ولو مرَّ مِن خلاله نهر دجلة.

كانت تسمع كلماته التي خلبت عقلها وسحرت قلبها، ونقلتها في ثوان معدودات مِن حياة الدنيا السفلى إلى حياة الجنة ونعيمها الأبدي، فصارت تتلوى بمكانها مِن سحر وروعة ما يقول، وأردف:

– إنَّ حبي لكِ نقي خالص.. وإنه عشقٌ عذري صافٍ كصفاءِ عينيكِ الجميلتين.

ولم تتكلم فأردف:

– رأيتُ نفسي ضيقة عن أن تسع حبي الكبير لك، فدعوتُ الله أن يغمرني بألف نفس.. كلها ستحبك حبا كبيرا رائعا كما لو أنَّ أراضي الرافدين ليس بها امرأةٌ سواكِ.

كانت تحس بأنفاسه عبر أثير الهاتف، كانت أنفاسه رجولية دافئة حنونة معطرة بأريج الورد المتغنج، تبتسم ويحمرُّ وجهها تكرارا وهي تُنصِتُ لكلماته، وهو الفنان الخبير الذي أتقن احتضان قلب فتاة مثلها اشتاقت زمنا إلى كلمات الحب والعشق وهي لا تدري.

تشجَّعتْ وقالت:

– وإني أميل لكَ ميلا غريبا يا عثمان.. وكلماتكَ قد شغفتني حبا وارتياحا.

فشعر بقلبه يطير كطائر بجناحين قد غمرا الأرض والسماء، وقال:

– ما بال قلبي قد صار بكلماتكِ القليلة يدقُّ هكذا يا زينب؟!.. وكأنكِ تملكيه بين يديكِ فتهزيه هزا يحملني لجنات النعيم.. فأشعر وكأني أصحو وأنام بين يدي حورية مِن الحور العين الموعودة للصالحين

– ما هذا الكلام الجميل يا عثمان؟!.. لم أكن أعرف أنَّ الحب جميل هكذا

– وماذا لو حدثتكِ عن أشواقي يا زينب؟.. إنَّ أشواقي لكِ تكاد تحبس أنفاسي وتشعرني بالغيرة مِن كل رجال الدنيا أن يلامس أنوفهم نسمة هواء لامستكِ يوما

فقالت مسرعةً، وقد بلغ بها الأمر غايته:

– كفى يا عثمان كفى.. أنا خائفة.. لا أستطيع التحمل

– متى أراك يا جميلتي الخائفة؟

– غدا.. ولكن كيف سأدبر حالي وأقف على الباب لتراني؟

– على الباب!.. ألن تسمحي لي بالدخول؟!

– كلا كلا؟

– أحبكِ يا خائفة

ابتسمتْ، وصارت شفتاها كورقتين مِن ورق الورد البغدادي المتغنج وقالت:

– يا عثمان لدي شعور بالفراق والضياع وكأني سأتركك أو تتركني

– لا تستسلمي لهذه الوساوس.. فقط سنسبح معا في فضاء الغرام

– أرجو ذلك

– لا تقلقي

الفصل السادس

وهناك بأقصى الجنوب في مدينة البصرة يلتقي المهندس علي والأسمر بأصدقائهما هناك في شركة بناء الجسور، ويتعرف علي على الزميلة ريتا خوري الفتاة العراقية مسيحية الديانة، والتي ترافقه في العمل، فيشعر الرجل الأربعيني الذي كان يجهل كلَّ مشاعر الغرام بشعورٍ طارىءٍ جديدٍ يتوغل داخل أعماق نفسه وحياته.

وفي الجانبِ الآخر تمرُّ الساعاتُ على ريتا خوري وهي تفكر بزميلها الذي جاء مِن قرب العاصمة وكله همة ونشاط وحماس، وهو يرتدي أفخر الثياب وأكثرها أناقة، تقول في نفسها: (إنه إنسان مميز بالفعل) ولكن قد اعتلاها قلقٌ لاختلاف الديانة.

وفي المساء قصد علي وبرفقته الأصفر أقربَ سوقٍ لشراء بعض الحاجيات، وكانت المفاجأة أن شاهد ريتا خوري مع امرأة كبيرة بالسن عرف فيما بعد أنها أمها، كانت تسير بخطى وئيدة، والتقت العينان حين تقاطع طريقاهما، فحاول أن يُخفِي ما في داخله مِن إعجاب، ويرفق بقلبه

حين ولادة حب في لحظاته الأولى، وهي تقول في نفسها حين مرت به: (يا ويلي مِن نظرات عينيه!)

أما الأصفر فلم يلحظ أي شي، ولم يعرفها، لأنها كانت ترتدي ملابس أنيقـة وأكثر جمالا مِن ملابس العمل، ثم إنه بطبيعته يقضى حياته هكذا شاردا على الأرجح، في الوقت الذي كان مِن اليسير على المعجب المائل بجواره أن يعرفها ويهفو نحوها، هذا بالضبط كما قال الكاتب الروائي رضا الحمد: "القلوبُ المتآلفة كأغصانِ شجرةٍ واحدةٍ، إن مالت حين تحفها النسائم، فإنما تميل على ما يجاورها ويحنو عليها ويستر نواقصها"

وجثم الليل، وخلا العاشق الهائم الجديد إلى نفسه، وأمست معشوقته حائرة شاردة هائمة بهذا الجو الجديـد والجميل عليها: (هل عرفني؟.. لماذا جاء في هذا الوقـت إلى السوق؟.. هل جاء مِن أجلي؟.. ربما أجل.. وربما لا.. ولكن على كلٍّ حال فقد التقت عينانا.. ولكن هل التقى القلبان.. ما لقلبي هذا؟!.. ماذا يحدث لي؟!

وطار النوم مِن علي، فقد جذبته جذبا قويا محببا بجمالها وأناقتها ورقتها وعطرها وهي تسير واثقة الخطى في عتمة الليل أبهى وأجمل مِن أضواء النهار، وتُحرِّك شفتيها ببضع همساتٍ وكأنهما زهرتان حمراوان تحركتا مع نسمات الربيع، وهي تنظر له نظراتٍ ساحرةً بوجه يشبه تفاحة حمراء ناضجة حلوة المنظر والمرأى.. فماذا عن مذاقها؟!

وأخيرا نام ما بقي مِن الليل، ثم توجَّه مبكرا إلى العمل لعله يتكلم معها قبل حضور بقية العاملين، ولكن طالعه وجه المدير الذي سبقهم إلى الشركة

وسط زملائه وزميلاته وفي حضور كثير مِن العمال ومنهم الأصفر.. قال المدير للمهندس علي:

- سأعطيك إجازة لعشرة أيام لترتب أمورك وأمور عائلتك ثم تعود إلينا.. كنتَ تستحقها بعد الالتحاق بنا مباشرة.. لكنكَ لم تطلبها

- ولِمَ؟

- لأنه قد جرت العادة في الدوائر الحكومية والشركات أنه بعد التحاق الموظف بعمل جديد يُمنَح إجازة ليعود لأهله وأولاده ويخبرهم بمكان عمله

- شكرا سيادة المدير.. لكني غير متزوج

قالها وهو ينظر إلى ريتا بشكلٍ ملحوظٍ، فابتسمتْ له ابتسامة خجولة، وأكمل هو:

- أنا لا أحتاج الإجازة.. وأنا هنا مرتاح مع أطيب أصدقاء وأجمل زملاء

فتهلل وجه ريتا وشعرت ببهجةٍ غامرة، وتيقنتْ مِن عشق هذا الأربعيني لها.

وأصبح صباحٌ آخرُ هناك، ثم صارت الشمسُ في طريقها لتتوسط كبد السماء، وزينب تنتظر أقرب فرصة لتتصل بعثمان، ولكنها حذرة مِن تلصص أحلام، وبذاءة لسان أختها المتوحشة وأمها سليطة اللسان.. تخاف خفايا القدر ونوازله العظيمة، وهي تطوي لحظاتِ الكتمان والعبوس بابتسامةٍ رقيقةٍ كلما تذكرت عثمان وطيفه الذي صار لا يغيب عن ذهنها وقلبها.

وعندما انتصف النهار طُرِقَ البابُ، وإذا بمصدر البلاء العظيم تدخل بعد أن قبَّلت ابنتها أحلام على الباب، وجلست تنتظر الغداء، لكنَّ زينب المسؤولة عن التسوق والطبخ في هذا اليوم مكرت بها فلم تعد شيئا ثم أخبرتها:

- لم نطبخ اليوم يا خالة.. لقد انشغلنا أنا وأحلام بتنظيف البيت والستائر

فتنهدت المرأة بحرقة شقَّت صدرها، ونهضت أحلام وأحضرت الشاي لأمها مع بعض الكيك، فشربت ثم خرجتْ مغادرة في حسرة، وضحكت زينب، فقالت أحلام في غضبٍ:

- أتضحكين؟.. ما أغربك!

- إني أضحك في اليوم مرة واحدة، ولكني أبكي مئة مرة قبلها وبعدها.. أبكي لفراق أمي التي حرمني الزمان القاسي منها.. لن تفهميني لأنكِ لم تجربي العيش بلا أم.. فاحمدي الله

وعن المهندس علي، فكانت تراوده الرغبة في أن يكلم رفيقه الأصفر بموضوع ريتـا على الرغم مِن أنه ظلَّ يخشي تصرفاته الرعناء، وقصر تفكيره، ولسانه الممدود بتوافه الأمور.

بحث عنه حتى وجده جالسا تحت شجرة الحناء التي تعطر المكان كله بعبق عطرها، فتخيَّل شعر ريتـا قد تعطر بأبهى العطور كهذه الشجرة.. حيَّاه وجلس، وناوله صاحبه كوبا مِن الشاي مع الهيل، ظلَّ يشرب وهو ينظر لوجه صديقه صامتا، ويستوثق مِن صحة ما قرره قبل أن يفرغ ما لديه له.

وكان صاحبه مغرقا في السكون الغريب، ولكنه كان يشعر بقلب علي، ويعرف تعلقه بريتا خوري منذ اليوم الذي رفض فيه الذهاب في إجازة، فنطق بما لم يتوقعه علي منه:

– لا تتعجَّل يا علي.. وتذكر أنكَ في أول الطريق رغم أنها فتاة جميلة متوقدة الذهن، نافذة الذكاء ذات روح مرحة تسحر مَن حولها بحديثها.

فوجىء علي بذكاء صاحبه المفاجىء وفطنته، وانبهر أكثر بهذه الكلمات التي جرت على لسانه، لكنه أخفى انبهاره وقال:

– ماذا تقول يا أصفر؟

– لِمَ تظنني دائما أحمقَ يا علي؟

– كيف عرفتَ ذلك يا أصفر؟!

– أنا صاحبك ورفيق دربك.. كيف لا أشعر بكَ؟.. دائما القلوب المحبة النقية تشعر بالأحاسيس ذاتها فيما بينها.

وعتب علي على نفسه في سره أن كان يستصغر صاحبه هذا دائما وهو يستحق كلَّ الإشادة.

ونظر إليه الأصفر نظرة ثاقبة، وقال مبتسما:

– أنا أعرف ماذا تقول في نفسك الآن يا علي

– ماذا أقول؟

– تقول أين كان يخفي هذا الأحمق فطنته ومشاعره تلك.. لكن دعك مِن هذا.. وأخبرني يا قيس المجنون عن ليلاكَ ريتا التي جئتني مِن أجلها

فنظر علي له بعينين مشدوهتين عجبا وقال:

– أنا في هذه الأيام قد أقبلتُ على حياة جديدة لم أعشها مِن قبل.. حياة ليس بينها وبين حياتي الماضية سبب أو صلة.. لهذا فأنا حائر ذاهل

– وماذا أيضا يا قيس المجنون؟

– نظرة واحدة مِن عين ريتا تمحو حياتي السابقة لأبني مِن جديد جسورا تصلني بالسعادة التي خاصمتني طوالا كتلك الجسور التي نبنيها لنعيد الحياة الهنية وروابطها السعيدة في وطننا المجيد

– صرتَ شاعرا عظيما يا علي

– وكيف لا أكون وأنا أشم عطرها الأخاذ كل صباح عندما تحتسي الشاي في الكافتريا.. وحين تقترب مني وتتطاير خصلاتٌ مِن شعرها الأشقر بجانب وجهي؟!

– ولكنَّ شعرها ليس أشقر يا علي بل مجعدا قبيحا.. ورائحته تشبه رائحة البخور الهندية المقززة

– هذا لأنكَ تراها بعينيكَ القبيحتين يا أصفر الوجه

– فعلا عيناي قبيحتان لكنهما يريان ما لا تستطيع أن تراه عيون المها

– مَن مها تلك يا أصفر؟

– جارتنا في الحي.. جلست على زوجها وهي لا تدري أنه تحتها حتى خرجت روحه

- ماذا تقول؟!

- لا أعرف.. أتعرف أنتَ؟

قالها الأصفر لعلي، ثم نظرا لبعضهما مستغربين مما صارا يقولانه، فنقلا كلامهما مِن الجد إلى المزاح، وصارا يغرقان في ضحكٍ متواصل أسقطهما بالأرض رغما عنهما مِن فرط جمال هذا الضحك وغرابة الموقف.

وقد شارفت الشمس على المغيب وهما جالسان يتحدثان عن الحب والعشق ولم يشعرا بالوقت، ولا بانتهاء وردية العمل حتى أذَّن المؤذن لصلاة المغرب، فنهضا للصلاة.

وهناك ببيت العائلة الكبير صارت زينب تتحيَّن الفرصَ المناسبةَ لتتصل بعثمان الذي كان مثلها يتلهَّفُ لسماع همس صوت الحب الحنون الشجي.

وأرخى الليل سدوله، وذهبت أحلام إلى مضجعها لا تلوي على شي إلا النوم على وسادة أحمد، علها تحظى به في المنام لتطفىء شراراتِ قلبها المتلهف إلى أحضانه الغائبة.

وما كاد الليل يقطع ثلثيه حتى تشجَّعت زينب، وأمسكت بسماعة الهاتف بعد نظرات متتابعة على باب غرفة أحلام الموصد، وكأنها تنظر إلى باب جهنم التي ترجو أن يظلَّ مغلقا أمامها لا يُفتَحُ، لشدة حذرها وخوفها، واتصلت أخيرا لتسمع عثمان:

- أين كنتِ يا زينب؟.. قلقتُ عليكِ كثيرا.. لم تغيبي عني

- وأنتَ أيضا لم تغب عني لحظة

- لم يعد الهاتف يُجدِي معنا.. عندي كلام مهم.. سآتي في الصباح
- لن أستطيع.. لا تأتِ
- لم أعد أتحمل هذا البعد والاشتياق
- زوجة أخي تراقبني
- إذن سآتي في المساء حتى لا يراني أحد.. فما رأيك؟
- لا أعرف يا عثمان
- فقط سنتحدث مِن خلف الباب
- حسنا تعال
- سآتي بعد صلاة العشاء

وسمعتْ عند ذلك حركة غريبة في غرفة أحلام، فخافت وأغلقت فجأة، وخرجت أحلام مِن غرفتها تريد الماء، وذهبتْ زينب إلى فراشها دون أن تنتبه لها المرأة الظمأى.

وكانت زينب هي الأخرى ظمأى مثلها، لكن لشيء آخر غير الماء، شيء لا تستطيع أن تبوح به لأحد، فقضت وقتها مع الأرق المستمر تفكر في غد، وجسمها يرتعد ارتعادا جديدا عليها بسبب هذا اللقاء المرتقب مع الحبيب.

وحين ارتفع ضحى الغد، سعى عثمان أمام دار الحبيبة يريد أن يظفر بنظرةٍ منها، ولم يعد لديه صبر لينتظر حتى يحل المساء وتحل الظلمة التي تأوي في طياتها كلَّ مخابىء العشاق، وصار يذهب ويؤوب حتى جاءت صلاة العشاء.

ذهب الجميع إلى مسجد الحي للصلاة، وعاج الهائم الشقي حذرا على دار الهائمة التي مشَّطت شعرها وتعطَّرت، ثم اختفت خلف شجرة التوت الكثيفة العالية التي تقع خلف الباب مباشرة داعية ألا تنتبه لها أحلام.

دخل عثمان مِن باب البيت الكبير، فوجدها منزويةً خلف الشجرة مدهوشةً، فوقف أمامها كطفلٍ خفيف الظل جذاب، جاء مِن الصحراء إلى مدينة الألعاب مرتديا أجمل الملابس.. كانت سترته سوداءَ بربطةِ عنقٍ حمراءَ وقميصٍ أبيضَ، وقد تعطَّر بأرقى العطور الفرنسية، وكانت هي ترتعدُ خوفا وهلعاً، وزاد هلعها حين أمسك بيديها والتقطها إلى أحضانه ليطفىء جمر أشواقه ولهيبها الحارق بقبلات متبادلة بينهما، وقد صار كمن ألقى على النار المتأججة وقودا زادها اشتعالا وتوهجا، ثم استفاقت سريعا، وزجرته زجرا يبدو في الظاهر عنيفا رافضا، وفي الحقيقة كأنها تقول له: (هيت لكَ).

قالت:

- ماذا تفعل يا مجنون؟

- مسكينٌ مشتاق

- الشوق لثمار الغير حرام

- لكني جائع وقد أهلكُ بغير ثمارك

- ثماري لا يأكلها إلا متوضىء طائع

- أنا مِن إحدى يديكِ للأخرى

- وأنا حينها سأكون طوع يديكَ بكلِّ حنان

- لكن أليس هناك بعض القطرات مما يروي الظمآن؟

- أنا خائفةٌ يا عثمان

- لِمَ الخوفُ؟

- لأني أول مرة أواعد رجلا ظمآن

- وهذا أكثر ما يجذبني إليكِ.. طهرك

- لكني خائفة منكَ.. وخلفي امرأة تنتهز الفرصة لتقهرني

- لن أسمح لها.. سأطلبكِ إليَّ زوجة على سنة ربي ورسوله

- إذن كلمني عن أهلك.. بلدك

- بلدي بعيدة بحدود الأتراك.. لذا قد أستغرق خمسة أيام حتى أعود إليكِ بأهلي لخطبتكِ

- خمسة أيـــام؟.. هذا كثير.. ستمرُّ عليَّ كسنين عجاف

- أحبكِ يا زينب

- أحبكَ يا عثمان

وعاد عثمان فاحتضنها وقبلها وقبلته، وأزال عنها بعض ثيابها وهو يلثم كلَّ مكان برقبتها وصدرها، فهوت تحته على الأرض أسفل شجرة التوت متشابكين ملتفين على بعضهما فوق الحشائش الغضة، يلهبهما الشوق والعشق.

وفي هذه الأثناء كانت أحلام قد خرجتْ مِن غرفتها، ولأنَّ طباعها بوليسية كأمها سليطة اللسان، بدأت تتحسَّس مكان زينب بدون صوتٍ،

وتسترقُّ النظر والسمع لعلها تظفر بمصيبة تطيح بها، فتوجَّهتْ إلى الصالة، فوجدت التلفاز صوته عالٍ وهو ينقل مباراة كرة قدم، ثم توجَّهتْ إلى ماكينة الخياطة فلم تجدها أمامها، ثم إلى المطبخ فلم تجدها، فصارت تتساءل في نفسها: (أين ذهبتْ تلك الملعونة الشقية؟!)

وبينما كانت زينب وعثمان كجسدٍ واحدٍ، يُطفئان لهيب شوقهما تحت شجرة التوت كانت أحلام قد وصلت إلى حديقة البيت، ووقفتْ تراقبهما مِن بعيد حتى غادر العاشق عاشقته مفلتا بصعوبة يديه مِن بين أصابع يديها.

برزتْ لها فجأة مِن خلف شجرةٍ أخرى كشبحٍ مخيفٍ ظهر ليقطع عليها طريق هناءتها وآمالها السعيدة التي بدأت تلوح لها أخيراً وسط عتمة حياتها:

- أيتها العاشقة الفاجرة أمسكتُ بكِ

أصيبتْ زينب بهلع لا حد له، ووقع عليها كلام أحلام وقع الصواعق المحرقة، واختلَّ توازنها، واضطرب عقلها حتى شعرت بأنَّ الدماء تجمدت في عروقها، وشرعت تلملم نفسها وثيابها:

- أرجوكِ يا أحلام.. لا تخبري أحدا

- مَن هذا الرجل؟

- سأخبركِ فيما بعد

قالتها زينب وهي تشعر بالقهر، وراحت تبكي وبدأت ترتعد، فرددت أحلام أمامها أغنية لا تكذبي وهي تستلذُّ بتعذيبها وقهرها:

- لا تكذبي ..

لا تكذبي.. إني رأيتكما معا
ودعي البكاء .. فقد كرهتُ الأدمعا
ما أهون الدمعَ الجسورَ إذا جرى
مِن عين كاذبةٍ فأنكر وادَّعى !
إنى رأيتكما .. إنى سمعتكما
عيناكِ فى عينيه .. فى شفتيه
فى كفيه .. فى قدميه
ويداكِ ضارعتان
ترتعشان مِن لهف عليه!
لا تكذبي.....

وقاطعتها زينب:

- كفى أرجوكِ كفى

- سأخبر أخــاك عندما يعود.. فأنا مؤتمنة عليكِ، ولا أخفي سـرا عن زوجي الحبيب

كانت لحظات قاتلة فاصلة، ومنذ تلك اللحظة أقيم حجابٌ سميكٌ بينهما يقطع كلَّ أسباب المودة والاحترام، وينذر بقدوم عهدٍ جديدٍ في حياةِ زينب يختلف عن حياتها السابقة.

وقضت زينب شطرا طويلا مِن الليل، لا تستطع أن تنام، أو حتى تجلس في أي مكانٍ.. (كيف فعلتُ هذا الفعل؟!.. كيف سمحتُ لنفسي أن يحدث

لي كلُّ هذا الهراء؟!.. كم أنا غبية وساذجة!.. وماذا سأفعل مع هذه الملعونة التي ستشعل حربا ضروسا بيني وبين أخواي عندما يعودان؟!.. ربما سيقتلانني.. يا ليتهما يقتلانني فأعيش حياة أخرى غير هذه الحياة في عالم آخر خالٍ مِن البؤس والحرمان وخالٍ مِن المنافقين وسرَّاق الفرح.. آه يا زينب آه.. لقد دارت الرياح عكس اتجاه سفينتكِ.. وستغرق سفينتكِ عاجلا غير آجل في بحر أحلام وأمها)

لكنها بعد هذه الكلمات التي أرَّقت ليلها ومضجعها نطقتْ في صوتٍ ثابتٍ: (لكن الحبَّ يبدد كلَّ العراقيل ويمحوها محوا.. نعم سينتصر حبنا أمام كل العوائق رغما عن أنف أحلام)

وأصبح الصباح، وتوجَّه عثمان إلى غرفة المدير لكي يقدم طلب إجازة لمدة أسبوع ذاكرا له السبب، فتلقاه المديرُ حفيا به، وضمه إليه وقبله، حيث إنه مِن أفضل الموظفين لديه في دائرة الكهرباء.

– أسبوع مدة طويلة يا عثمان، ونحن لا نستغني عنكَ.. سأعطيك خمسة أيام فقط واعتبار مِن الغد

وغربت الشمسُ، وحلَّ المساء، وتوجَّه عثمان إلى محطة القطار ليعود إلى أهله فيخبرهم عن زينب، ثم يصطحبهم لخطبة الفتاة التي بقيت تنتظره على أحر مِن الجمر.

وهناك ببيت أهله على الحدود التركية جلس عثمان إلى مائدة الطعام التي كانت عامرة بكلِّ صنوف طعامه المفضل مما لذَّ وطاب.. قالت أمه:

- اليوم أراك مبتسما دائما يا ولدي

- فعلا أنا مسرور جدا يا أمي

- أدام الله سرورك.. لكن هل هناك شيئا جديـدا؟.. فرحني معك

- نعم يا أمي.. لقد تعرفت على فتاة جميلة جدا ذات أخلاق عالية وشرف وأصل.. وأريد أن أخطبها.. إنها فتاة رائعة ومؤدبة

- وأين تعرفتَ عليها؟

- في المدينة التي أعمل بها.. إنها حقا مدينة جميلة وأهلها طيبون ومسالمون

- هل جُننتَ؟!.. ماذا تقول؟!

- قلتُ ما سمعتِه مني يا أمي

تركت أمه الطعام صارخة به:

- هل تريد أن تبدد أحلامي وتحطم آمالي وأنا أعـد العـدة لأزوجـك ابنـة أخي.. إنهـا فتـاة جميلة وفاتنـة ونعرفها وتعرفنا.....

فقاطعها عثمان والقلب ينزف حزنا وقلقا قبل دموع العين، حيث إنه يعرف أنَّ كلمتها واحدة، ولا تتنازل عنها في كلِّ الأحيـان.

- هذه ردة فعل غريبـة يا أمي

- أنا لا أعرف كيف تفكر.. تـريـد أن تتـرك ابنـة أخـي مِن أجـل فتـاة غريبة.. تريد أن تهجـر أمك ومدينتك وتفارق أهلك وأصدقاءك مِن أجل عالم آخر مجهول لنا ولك.. لا تكن ابنا عاقا يا عثمان

ولم يطق صبرا على كلام أمـه القاطع، فتوجَّه إلى أبيه على الرغم مِن علمه أنه لا يملك مِن أمـره شيئا أمام كلمة واحدة مِن الأم سيدة البيت كأم الأصفر، حيث لم يكن أبوه سوى رجـلٍ يأكل وينام، وهي مَن تتولى أعمـال البيت وأموره وحدها.

لذا لم يسمع مِن أبيه إلا جملة واحدة فقط:

– كن رفيقا بأمك رؤوفا بأبيك يا عثمان.. لا ترفض لها طلبا يا ولدي الطيب

وتحوَّلت كلُّ حياته مِن مظاهر التفاؤل والروعة إلى التشاؤم والبشاعة مع عناءٍ متواصلٍ، وشعورٍ بالانكسار وقلـة الحيلة، وصار يرى بعينيه شعلة سعادته تنطفىء رويدا رويدا، وقد عاود محادثة أمه مرة ثانية وثالثة ورابعة، لكنَّ الرفض التام كان هو الرد في كلِّ مرة.

أحسَّ بأنه شخصٌ نكرةٌ كأي حشرة لا قيمة لها مع حسرةٍ في القلب وحزنٍ لا ينتهي وهو جاثم في حجرته لا يفارقها، كأنما قد شلت قدماه مِن هول ما يسمع تكرارا مِن أمه صاحبة الرأي الواحد والكلمة القوية التي لا مراجعة لها، ومثله كانت زينب تحيا هناك بنفس الهم والتشاؤم والانكسار، تنتظر على بعد مئات الأميال حبيبها المغلوب المقهور.

***

الفصل السابع

قصَّت أحلام على أمها ما رأت وسمعت وزادت عليه كثيرا، وكلها شوقٌ ولهفةٌ لكسر رقبةِ هذه المسكينة، وأمها تسمعُ بعينٍ بارقةٍ وجسدٍ يكاد يرقص طربا وانتشاءً، تكزُّ على أسنانها تأثرا، وتبتسم حيناً، وتتفاجأ حيناً آخر مِن هول وإثارة ما تسمع مِن ابنتها.

– لقد وقعتِ في الفخ يا زينب.. الآن انتهيتِ.. ومنذ هذه اللحظة ستكونين جارية لابنتي الأميرة أحلام.. انكسر أنفك العالي وتمرَّغ في التراب ونزل إلى الحضيض أيتها البريئة الفاضلة.. انتهى زمن تمثيل أدوار البراءة والطهر.. لكن مَن سيء الحظ هذا يا أحلام؟

– لا أعرفه.. وأظنه ليس مِن الحي.. لقد نهض مِن فوقها ومرَّ سريعا مِن أمامي مـرور البرق الخاطف.. لكنه شاب ليس طويلا وشعره كثيف وحليق الذقن.. هذا فقط ما التقطته

– لا يهم.. المهم أني سأجعلها بسببه خادمة تحت قدميكِ

وكانت الأم سليطة اللسان، كثيرة المكر والدهاء والذكاء، تحبُّ جلسات النساء وأحاديثهن الفارغة، وهي أشدهن تتبعا لعيوب الناس، حيث إنها تتلذذ بالغيبة والنميمة، وتتفوه بأبشع الألفاظ وأقبحها مما يستعفف عن نطقها الرجال.

أما زينب، فكانت خائفة وجلة مِن لقاء أحلام وأمها، وتتحرَّق استغاثة لقدوم عثمان وأهله، لكن ها هي سليطة اللسان قد جاءت وقالت لها:

– سأقول لأحمد عندما يعود لكي يقتلكِ أيتها الفاجرة

قالت وغادرت، فالتفتت زينب لأحلام وسألتها:

– ما الذنب الذي اقترفته بحق أمكِ؟

– لقد اقترفتِ ذنبا بحق نفسكِ ونفسي.. كيف تدخلين رجلا غريبا علينا؟!.. أنا أعيش معكِ في هذا المنزل.. ماذا إن رآه الجيران داخلا أو خارجا.. قد يظنونني عشيقته.. هذه حماقة كبيرة منكِ

– نعم حماقة.. ولكنها أجمل الحماقات وأروعها

قالتها في نفسها، ثم دخلت إلى غرفتها، ثم خرجتْ بعد ساعة قائلة لأحلام بنبرة استعطاف:

– أناشدك الله يا أحلام.. كلمي خالتي لتقف معي هذه المرة

– آلآن خالتك؟!.. ألم تكن مِن قبل سليطة اللسان؟!

– أرجوكِ وأتوسل إليكِ وأتعهد بأنَّ هذا الأمـر لن يتكرر مرة ثانية

- ومَن هذا الشخص الغـريب؟

- لم ألتقيه إلا مرة واحدة تحت شجرة التوت.. وأقسم على ذلك بأقدس الأيمان

- هل يحبك وتحبينه؟

- نعم.. وسيأتي مع أهله ليخطبني بعد يومين أو ثلاثة.. ونتزوج وأترك لكِ البيت

توسلت وقد اغرورقت عيناها المتعبتان بكثير مِن الدموع وهي لا تلوي على شي إلا الستر مِن هذه الفضيحة وتلك الحماقة التي ارتكبتها في الخفاء، فأمست أيامها تلك عليها أكثر قسوة مِن موت أمها.. تخاف أن يعلم فيتصدع بنيان ملائكيتها عندهم بهذه الواقعة، وخاصة إذا كانت ترويها لهم سليطة اللسان أو ابنتها أحلام.

ظلَّت شطر الليل الأعظم في أرقٍ وسهاد تفكر في هذا الخزي الذي قد يلحق بها فيصير معرة الزمن فوق جبينها، وكانت تردد دائما قائلة لنفسها أكثر مِن مرة: (ولمَ لا أستنجد بأختي أسماء؟!.. لكن ماذا أقول لها؟.. وكيف؟.. لا.. لا يمكنَ)

وأشرقت الشمس، وصحت أحلام مِن نومها فرحة مسرورة وهي تغني في المطبخ وتتراقص، وقد أدارت الأغنية بقصيدة لا تكذبي، فملأت البيت كله بها وهي تشعر بنشوة الانتصار.

- هيا اصحي يا زينب لننظف البيت.. لقد أقبلت بوادر عيد الأضحى.. وسيعود أخواكِ

استيقظت زينب مِن نوم أقل مِن ساعتين شاحبة الوجه، فأسرعتْ إلى الكاسيت فأطفأته، ثم استعدت لتنظف البيت معها على كره ومضض، لكن يبدو أخيرا أنَّ قلب أحلام قد رقَّ قليلا، فأمسكت يدها بلطف قائلة:

– لا تقلقي.. سأكلم أمي

– صحيح؟!

– صحيح.. والآن

ورفعت أحلام سماعة الهاتف:

– السلام عليكم

– وعليكم السلام.. أهلا ابنتي العزيزة

– كيف حالكِ يا غالية؟

– بخير.. وكيف حالكِ أنت؟

– أمي العزيزة.. أريدك أن تنسي ما حصل مِن زينب.. وليكن سرا بيننا أرجوكِ

– هل هي جوارِكِ؟

– أجل

– لكن بشرط

– ما هو؟

– لا يمكن قوله على الهاتف.. سآتي ليلا.. وعليها أن تحضر لي عشاءً يليق بكرمي معها

- حاضر يا أمي.. أهلا وسهلا.. بانتظارك نحن

وجاءت سليطة اللسان، فسألتها ما إن جلستْ على أريكة الأم المرحومة:

- ماذا حضَّرتِ يا زينب على العشاء؟

- لحما مشويا على الفحم

- ولكني أشتهي السمك.. حضري السمك لي على الفحم

- حاضر يا خالة

- وأعدي لي فنجان قهوة الآن

- حاضر يا خـالـة

- واصنعي عصيرا لأحلام

- حاضر يا خالة

- ورجلي اليسرى تؤلمني.. أريدك أن تدلكيها لي

- حاضر يا خـالـة

وصنعت زينب ما طلبته المرأة، ثم ذهبت لشوي السمك وهي تحدث نفسها: (ماذا فعلتُ بنفسي؟!.. أنا الآن خادمة لأحلام الحمقاء وأمها الشمطاء.. متى ينتهي وجعي؟!.. أين أنتَ يا عثمان؟.. حتى لم تتذكرني باتصال هاتف لتطمئن قلبي)

ونادتها الشمطاء سليطة اللسان مِن جديد:

- اغسلي ملابس أحلام بينما تشوين السمك

- حاضر يا خالة

- وغيري ملاءات سريرها.. زوجها قادمٌ قريبا

- حاضر يا خالة

- وأديري الكاسيت على أغنية لا تكذبي.. أخبرتني أحلام أنَّ كلماتها مؤثرة معبرة

فبكت زينب وهي تردد:

- حاضر يا خالة.. حاضر

- وأخبريني.. مَن هذا الشاب سيء الحظ الذي قابلتيه تحت شجرة التوت الكبيرة في الليلة الظلماء؟

- بإذن الله يأتي قريبا وتتعرفون عليه جميعا يا خالة

- حقا اخترتِ مكانا مناسبا تحت الشجرة.. فالضوء خافت يُغرِي للقيام بأفعال مشينة لفتاة جميلة ومثيرة مثلك مع شاب غريب خلسة

- كفى يا خالة

- مَن استدرج الآخر إلى هذه الخلوة؟.. أنت أم هو؟.. أكيد أنتِ.. هل استسلمتِ له للنهاية؟!.. كم قبلة قبلكِ؟.. وأين؟.. هل داعب صدركِ ومؤخرتكِ؟.. أنتِ جريئة جدا ومتهورة مع أنَّ الجميع يظنونكِ عاقلة ناضجة.. إنَّ ما قمتِ به هو ضرب من الجنون أو الفُجْر.. أتمنى ألَا يكون قد أفقدكِ عذريتكِ

كانت المسكينة على وشك أن تقع مغشيا عليها مِن فرط وقبح ما تسمعه مِن المرأة البذيئة فاسقة الألفاظ والتعبيرات

- تكلمي.. لا تستحي.. أنا بمقام أمك

- أنا عذراء يا خالة.. والله عذراء

كانت المرأة تستدرجها للاعتراف وهي تتكلم بهذه الطريقة القذرة، وكأنها تشعر بلذة مع كلِّ كلمة نابية قبيحة تلفظها، وأجابتها زينب في نفسها: (كيف تكونين بمقام أمي وأنتِ لا تساوين غرزَ خيطٍ في نعلها؟!.. أمي كانت امرأة صالحة لا تؤذي حتى مَن يؤذيها.. كيف تقارنين نفسك بأمي الطيبة أيتها الدنيئة الوَسِخة؟!

وصارت زينب تشعر بالغربة القاسية حتى في بيتها لكثرة ما سمعت خلاله مِن سليطة اللسان مِن كلمات بذيئة لوثته حين لوثت نفسها النقية، وكأنها لم تعد تتنفس إلا هواءً ثقيلا لا يكون إلا بالبيت الذي كان لها قطعة مِن الجنة، حتى إنَّ أختها أسماء قد زارتها بأطفالها بعد ذلك لكنها لم تملك الجرأة لتخبرها بما حدث، فاكتفت بوعد أحلام وأمها لها بأن يصير الأمر سرا، وإن كانت لا تثق مقدار ذرة بوعدٍ يصدر عن هاتين.

وهناك بمكان عمله توجَّه أخوها المهندس علي إلى العمل صباحا يرافقه الأصفر، وعلي متشوق جدا لرؤية ريتـا خوري، قرَّر مفاتحتها بحبه وغرامه، ولكنه كان مترددا نوعا ما، فخطرت على باله فكرة أن يكلم المدير ليساعده في هذا الموضوع ويستشيره، فهو كصديق له، وبينما يدلف إلى مكتبه إذا بعينه تقع على باقة مِن الزهور تزين سطحه.. صاح بالفرَّاش:

- مَن أتى بهذه الزهور؟

- الآنسة ريتا

تهلل وجهه فرحا وأخرج مِن جيبه عملة نقدية وأعطاها للفراش إكراما لهذه البشرى، ووضع الخرائط التي كان يحملها على الأرض، وكذلك المسطرة والفرجال، وانحنى يشم الزهور بعمق، ثم توجَّه مباشرة إلى مكتب ريتـا.. وصل إلى بابها وهو يسمع دقات قلبه الخافقة تملؤه النشوة والغبطة.. طرق الباب ودخل فنهضت له.

- تفضل

دخل مرفوع الرأس، بارز الصدر، واثق الخطى، كأنه طاووس يتبختر أمام أنثاه.. جلس.

- صباح الخير

- صباح الورد

- شكرا على الزهور

- لا شكر بين الزملاء.. ماذا تشرب؟

- أي شيء

طلبت له عصيرا منعشا.. نظر لها قائلا:

- ذوقك رائع في اختيار الزهور

- شكرا لك.. هذا مِن ذوقك الراقي

- بالمناسبة.. كنت أنوي زيارتك حتى قبل الزهور.. لكنني كنتُ خجلا

- أرى دائما الخجل في عيونك وأستغرب

- لا تستغربي.. فأنا رجل قليل التعامل مع النساء

- أعرف.. وتلك ميزة كبيرة

- كيف عرفتِ؟

- يوم السوق.. كنتُ أنتظرك لتكلمني فلم تفعل

- ما رأيكِ أن أعزمكِ على الغداء خارج العمل؟

- وما المناسبة؟

- بدون مناسبة.. أو بنفس مناسبة إرسالكِ الزهور لي

ابتسمت وقالت:

- لكن أنا مَن سيدفع الحساب

نظر لها مستغربا وقال:

- فلتعلمي يا آنسة أمرا.. صار عمري أربعين سنة ولم تدفع حسابي امرأة في أي مكان.. فكيف أرضاه الآن؟!

- هذا لأنكَ رجل شهم أيها المهندس علي

- ألا يكفي علي بدون المهندس؟

- أنتَ تكفي الدنيا كلها بأي وضع

- أشكركِ يا ريتا

وعند الساعة الثانية بعد الظهر انتهى دوام الشركة، وخرجا سويا باتجاه الشارع الرئيس يرومان أحد المطاعم الفاخرة، وقد داعبته نفسه أن يمسك يدها أثناء الطريق وهما يتمشيان، ولكنه كان شديد الحياء، فلم يفعل، ووصلا إلى مطعم السمك النهري، وجلسا بانتظار النادل، وهي تقول في نفسها: (إنه رجل خلوق مكتمل العقل فائر الرجولة ومع ذلك ليس بالطائش كحال شباب الشركة الآخرين.. إنه الرجل المناسب الذي انتظرته طويلا)

وظلَّت تنظر إليه بإعجاب، ونظراتها مصحوبة بابتسامةٍ دائمةٍ.. تنتظره أن يتكلم لكنه بقي ساكتا، فتكلَّمتْ هي:

- تكلم يا علي

- لقد ضاعت كلماتي

- وأين ضاعت؟

- ضاعت في محراب عينيكِ.. ومع عطر شعرك الفواح.. وبجانب بياض وجهك الجميل.. وأمام سحر شفتيكِ اللذين يقطران دائما عسلا مُصفًّى

- ما هذا الغزل الساحر يا علي؟.. هل تعلمتَ في كلية الهندسة غزلا أم هندسة؟!

- الهندسة هي نوع مِن الغزل العملي.. تظل الأشياء جامدة عادية حتى تقع بين يدي مهندس ساحر فتصير رائعة الجمال

- لديكَ روح شاعر ويد فنان وعقل مهندس.. ما أروعكَ!

- الروعة إن لم ترها عينان رائعة كعينيكِ تظل لا شيء

- أشكرك

وصمت قليلا ثم قال:

- رغم كل شيء فأنا رجل عملي جاد في النهاية.. لذلك أسألكِ بدون تأجيل أو مواراة.. هل أنتِ مرتبطة بأي رجل؟

- أنتَ الرجل الوحيد الذي عرفته

- يا إلهي!.. يا لسعادتي.. والله لقد فتحتْ لي الجنة أبوابها يوم تلاقت عينانا

- كلماتك جميلة ياعلي

- أنتِ الأجمل

- أنا سعيدة بالتعرف إليكَ

- إذن أخبري أهلك أني سآتي للتعرف عليهم قبل نزولي للإجازة

- أهلا وسهلا بكَ في أي وقت

وأحسَّ علي أنه يفارق طورا مِن أطوار حياته ليدخل في طور جديد، وقد صار يمتلك جرأة ليخرج مع فتاة جميلة وأنيقة ومتبرجة أمام الناس لأول مرة في حياته، وراق له كثيرا أنه قد فاز بقلبها البريء الذي يفيض حنانا وشوقا قد أثمرا لكليهما فوق العشقِ عشقا آخر، ولكنه في الوقت نفسه ظلَّ يخشى مقالب القدر ونوازله.

ذهب قبيل غروب الشمس إلى البحر وهو قريب مِن مكان عمله ومسكنه ليملأ رئتيه مِن الهواء الطلق بصحبة صديقه الوفي الأصفر، وجلس يتدارس معه في قلقٍ ما يجب عليه أن يقوله حين التواجد بين عائلتها، وقد جعلت الشمس تغرب مسرعة والأصفر يفكر ماذا سيأكل في بيت ريتا على العشاء حين يرافقه، حيث إنه لم يأكل أكلا دسما منذ جاء إلى البصرة.

وفي الساعة الثامنة مساء استقلَّ سيارة الشركة بصحبة الأصفر متوجها إلى منزل ريتا، ودقَّا جرس الباب.. كانت ريتا تنتظر على أحر مِن الجمر.

– أهلا وسهلا.. تفضلا إلى غرفة الاستقبال

كان المنزل شرقيا نظيفا واسعا، وغرفة الاستقبال كبيرة معطرة تتوسط جدرانها صورة مريم العذراء والصليب فوقها، ثم جاء الأبوان واستقبلاهما بابتسامةٍ وترحيب، وإن كانت ابتسامة الأم لا تخلو مِن تكلف، ولم ترحه.. قال الوالد:

– أهلا.. كيف حالك يا علي؟.. لقد كلمتني ريتا عنكَ وعن أخلاقك الراقية.. هل لكَ أن تعرفنا على صاحبك

– إنه صاحبي الأصفر.. رفيق طفولتي وشبابي وكثير مِن ذكرياتي

– أهلا وسهلا تشرفنا

ودارت أقداحُ العصير، والمهندس علي قابعٌ في مكانه كمسمارٍ، وكأنه انتقل إلى عالم وردي بعيد، ليس فيه إلا هو وريتا بلا همومٍ، بلا حروبٍ، بلا فراق.

وجاءت أكواب الشاي، فتناول الأصفر كوبا وراح يجر ما به جرا مخجلا كان يسمعه كلُّ الجالسين مِن هذه العائلة الأرستقراطية الذين عكفوا على متابعته وعلى شفاههم علامات السخرية والضحك والاندهاش مِن طريقته في شرب الشاي، بينما قد أصاب علي خجل كبير مما يفعل صاحبه، وصار يقول في نفسه: (ما الذي جعلني أُحضِر معي هذا الأبله الأحمق؟.. ألم يشرب شايا من قبل؟!

وتحدثت ريتا بفرحة غامرة رغم ذلك لتنقلهم عن متابعة الأصفر الأحمق، وعلي يسمع كلماتها كأنها تغريد بلابل بجانب نافذة حجرة نومه، أما عن الأصفر فقد ترك كوبه بعد آخر جرة، ثم قال للجميع بوجه كئيب في حمق:

- كم تمنيتُ أن أجلس كما يجلس المهندس علي الآن

وصمت قليلا ثم قال:

- الحب جميل والله.. وإنَّ تناول العشاء مع المعشوقة أجمل ما في الحب

فجذب إليه كلَّ الأنظار والأسماع، وأفواههم عاجزة عن نطق ما يستفسرون به عما يقصد، فأردف يردد ذاكرا الله كأنه في حلقة ذكر ومديح:

- آه آه.. يا الله .. يا الله يا رحيم.. يا الله يا ستار.. يا غفور.. آه آه.. الرضاااا والنوووور.. والصبايا الحور.....

فنظر له علي بعينين بارقتين تنهيانه عن أن يستمر فيما يفعل، فقطع ما يفعل، فقال علي:

– إنه تذكر شيئا مِن ماضيه.. لا تهتموا.. فهو يعاني مِن مرضٍ ما

وحقا صدق علي، فقد تذكر حبه لزينب ومرضه بها، وتذكر عدم موافقة زينب عليه، ومع ذلك فقلبه ناصع البياض لا يحمل أية ضغينة لأخيها علي، وها هو رفيقه يرجو له كل الهناءة، ولم لا؟!.. فقد نشأ في بيت صوفي، وكان جده صاحب تكية، يقيم المناقب النبوية كل ليلة جمعة لمريديه وأحبابه وجيرانه، وهو متصل بهذه الطريقة أبا عن جد، وقد تعوَّد منذ نعومة أظفاره المديح والذكر وزيارة الأضرحة، وأخذ على نفسه التقشف وفرض عليها السهر ليلا للاستغفار والتهليل والتكبير، كما أنه كثير الصلاة في الليل، يعتكف عن الناس والأصدقاء أحيانا طويلة في المسجد ويخرج وكأنه في عالم ثان.

نهض والد ريتا، فحمل الطعام بنفسه مِن المطبخ، ووضعه على المائدة بكل بساطة وتواضع، وهو دائما يشارك زوجته في تنظيف السجاد والبيت، فهو رجل طيب هادىء متسامح، صاحب نكتة وابتسامة دائمة تعلو وجهه.

وبعد العشاء تركوا عليا وريتا منفردين ببعضهما، فظلَّ صاحبنا لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل، فأشار إلى الأصفر الذي يجلس غير بعيد، يسأله بإشارة مِن يده عما يجب عليه قوله وفعله، لكنه كان كالأعمى الذي يقوده ضرير، فقال في نفسه: (لماذا جلبتُ معي الأصفر صاحب الوجه النحس.. أعرف أنه لن يفيدني بشيء بعد تلك الحركات البهلوانية التي صدرت عنه وتلك التصرفات الغريبة.. تبا له مِن صاحب!)

وخرج الخطيبان إلى شرفة جانبية كبيرة، وجلسا على كرسيين متجاورين، فقالت ريتا:

– أين الكلام الجميل الذي قلته لي يوم خرجنا معا؟

- هل أعجبكِ كلامي؟
- أجل كثيرا
- عندي منه الكثير الآن
- إذن هيا قل
- أشعر أني كلما تقدمتُ خطوة نحوكِ وتقدمتِ خطوة نحوي.. يقف الزمان إجلالا لخطواتكِ أنتِ وهي تدق فِي قلبي ومشاعري
- كلامكَ يسحرني يا علي
- وشفاهكِ تقتلني
- حقا
- حقا

اقترب منها، وراح يتحسَّس شعرها الجميل ويلمس وجنتيها، ويتمعن في تضاريس جسدها الفاتن، ويلامس صدرها تكرار بأطراف أصابعه كأن الأمر يحدث سهوا، وكان على وشك أن يرتكب حماقة عندما لاصق جسده الثائر بجسدها المحموم، إذ كانت لهما رغبة مشتركة بتبادل القبلات، لكنه كان يتراجع حين يتذكر أخته التي تركها وحيدة يتيمة، فيخيل له أن رجلا غريبا يفعل بها ما يفعله الآن مع ريتـا، فيجر يده فزعا مذعورا وهو يتذكر الحديث النبوي (افعل ما شئت كما تدين تدان)

- عزيزتي ريتـا.. لقد جئت أطلب يدك للزواج.. وقد جلبتُ معي صاحبي هذا الأصفر ليعينني على أمري.. ولكن كما تعرفينه.. هو مَن يحتاج المساعدة كما رأيتِ

فضحكت ريتا قائلة:

– معك حق.. ثم إنك تملك لسان شاعر.. وإن كان لديك يد ألف عربيد عابث بالأجسام الحرام أيها المجرم.. مثلك يجب ألا يرى نساءً

فضحك علي كثيرا ضحكة المزهو بنفسه وقال:

– حقا هذا رأيك بي.. إذن اسمعي مني هذا.....

– أسمعكَ

– إني أستنشق عطركِ مع ريح أيلول.. وأرى عينيكِ في زرقة السماء الصافية وحتى مع قطرات المطر الجديدة ونسيم الليل وعبق الفجر.. وأبوح لكِ أني صرت مدمنا لصوتكِ.. لذلك كلما سمعته خزنته في ذاكرتي لأعيده على مسامعي في لحظات البؤس فيطربني.. وفي حالات الغضب فيجعلني أهدأ.. وفي ذاكرتي معكِ مِن الرغبة الكثير الذي يجعلني ألتهمك كأسد يعشق لبؤته.. ومِن الخجل ما يجعلني أحملكِ بين خوالج قلبي نقية طاهرة.. ومِن الغيرة ما يجعلني أخفيكِ داخل قصر مِن ذهب.. فلا تغادريه أبدا حتى لا تطأ قدماكِ موطأ أقدام داستها رجال.....

وقاطعته هائمة:

– يا لسحر كلامك!.. أحبكَ

فارتمى عليها بجسده وشفتيه ويديه يتحسسها ويقبلها وتقبله حتى تنبه الأصفر لهما، فبرقت عيناه ونهض متجها نحوهما:

– ماذا تفعلان؟

- لا شيء.. لا شيء

قالها علي وهو يشتعل غضبا منه، ثم قال:

- اذهب وسآتيك

فذهب، فقال علي لريتا:

- يا حبيبتي سأطلبك الآن مِن أهلك لتكوني زوجتي

- موافقة

فتوجَّه علي إلى الداخل حيث مكان جلوس الأهل:

- جئتكم أطلب يد ريتـا لتكون زوجة لي

فقالت أمها:

- حسنا.. لكن دعنا نفكر قليلا.. لا تنس اختلاف الديانتين

فقال علي مستغربا كلامها:

- إنَّ ديني يسمح بالزواج مِن ريتـا.. وأعرف أنَّ دينكم لا يمانع.. لكن ما رأيكَ يا أبا ريتا؟

- ما تراه ريتا أنا أراه

فنظرت المرأة لزوجها ولم تتكلم، وانصرف علي والأصفر، فسألت ريتا أمها:

- لماذا تكلمتِ هكذا مع علي يا أمي؟

– لا أعرف.. ولكني قلقة يا ريتا.. اختلاف الدينين ليس أمرا سهلا مقبولا

– لكنكِ تعرفين سبب قدومه وتعرفين أني أريده

– أجل لكن كلما اقترب الأمر مِن الجدية أصابني ذلك بالتشاؤم والقلق

– أفكارك محض أوهام.. مجرد أحاسيس متطرفة متناقضة.. عقد ورواسب قديمة.. أنتِ اليوم يا أمي سببتِ لي كسرا كبيرا

– أخاف أن يكون كل كلامه معكِ كذبا ولعبا بعقلكِ

– لا يا أمي.. ما يقلقكِ هو موضوع الدين فقط

– وليكن.. أليس مِن حقي؟!

– نعم ليس مِن حقك.. بل مِن حق قلبين ولدا وعشقا بعضهما دون أن يكتب على أحدهما مسلم وعلى الآخر مسيحي

– أنا خائفة وفقط

***

الفصل الثامن

كم كنتُ أحمقَ!.. كيف دخلتُ دارها؟!.. كيف سمحتُ لنفسي بلمسها وتقبيلها، لن أغفر لشهوتي وجوارحي ذلك العمل الصبياني الطائش، إني رجلٌ غير نبيل وغير مؤتمن، وستزوجني أمي على هواها مِن ابنة أخيها، سأقتلع شجرة التوت مِن حديقة بيتنا حتى لا تذكرني بشجرتها هناك.. فيا طفلتي البريئة، أنتِ الفتاة التي عشقتكِ ما إن رأيتكِ، كنتِ حُلْمي البهي.

عشقتُ مدينة كاملة بأهلها وشوارعها وأضوائها وأشجارها ومحاسنها ومساوئها حين رأيتُ جمال عينيك الساحرتين، نارك المحرقة أحرقت قلبي، كنتُ أحتقر هذه المدينة قبل أن أراكِ، وكنت أباهي بنفسي قياسا بناسها البسطاء، وأتهمهم بالسذاجة، إني آسف جدا لأني مررت بحياتكِ، صدفةٌ حمقاءُ جمعتنا ستولد لكِ مرارة وألما، وأنا مَدين لكِ بالاعتذار مدى الحياة لأني خذلتكِ ولم أكن فارسك الملهم، أرهقتك بوعودي، ثم ها أنا الآن أتخلَّى عنك.. سامحيني، لا أملك الشجاعة حتى لأهاتفك، أو لأرسل لكِ رسالةً بما قلته الآن في نفسي.

قنع عثمان بمصيره، واستسلم خوفا وضعفا عن أن يخالف أوامر والدته، لأنه طيب ونقي السريرة، وعاد يخاطب نفسه وحبيبته: (قد وأدوا عشقنا يا زينب وهو لا يزال في المهد.. لكن قلبي سيبقى معكِ أينما تكونين.. سوف أتذكرك كل ساعة وكل حين.. ولن أنساكِ لحظة واحدة.. سيبقى اسمكِ محفورا في جدار قلبي.. وعطرك يجري في صماماته.. وأنفاسك تسري مع شرايين دمي.. وهمسات رموش عينيكِ هي دليل هدايتي وضياعي في آن واحد.. لن أنسى كيف بدأت قصتنا القصيرة وانتهت سريعا.. نعم عليَّ أن أتأقلم مع هذا الوضع البائس وإن كان مِن الصعب عليَّ نسيانك.. لكن كيف لي أن أتحمَّل جنوني واشتياقي؟!)

أشرقت شمس هذا الصباح، وكان صباحا دافئا تجوب السماء خلاله قطع مِن الغيوم البيضاء.. جاءت أمه بقدح الشاي مع خبز التنور المحشو بقطع السمسم مع مربى الكرز الذي جنته مِن حديقتهم له، وبخطوات متراخية اقتربت منه وهي تقول بقرارة نفسها: (ترى هل خلا رأسه مِن الأفكار؟

أما والده فقد استدرك خطورة أمر أن يعود عثمان مرة ثانية إلى تلك المدينة فيلتقي بفتاة أحلامه فتعود المشاعر تعصف بقلبه مِن جديد، فتوجَّه بعد استشارة زوجته منذ الصباح الباكر إلى أحد أقربائه، ويدعى السيد عبد القادر، وكان مسؤولا كبيرا في الحكومة، ذا شارب طويل ولحية حمراء اللون، خفيفة نوعا ما، أحمر الوجه، يرتدي بزة عسكرية، مهيب المنظر.. نهض مِن مكانه واستقبله بالأحضان، وبعد أن جلس وشرب كوب الشاي قال:

– جئتكَ يابن عمي لتساعدني بنقل ابني عثمان مِن مكان عمله لأنه ليس آمنا .. وهو مكان بعيد أيضا.. وأنت تعرف أنه وحيدنا.. وأمه لا تقوى على فراقه

– حسنا يابن عمي.. اعتبر أن الأمر محسوم.. لن يعود عثمان إلى تلك المدينة البعيدة

– أشكرك جدا جدا

فرحتْ أم عثمان كثيرا حتى كادت تطير مِن الفرحة، حتى إنها قفزت على أريكة زوجها البالية المصنوعة مِن خشب البلوط والمدهونة باللون الأحمر، وزوجها واقفٌ أمامها يتابعها، ولسان حاله يقول: (لقد سرقتِ سعادة ولدكِ الوحيد أيتها الحمقاء.. وأنا شريك معك في هذه الجريمة.. نعم إنها السعادة المسروقة.. لقد صادرنا أحلامه بغتة وحولنا مسار حياته مِن فرح غامر وغبطة إلى حزن وبؤس وألم.. لقد أضحى قلبه مستودعا لكلِّ الهموم)

ثم انقضى أسبوع وأقبل أسبوع آخر، وفي يوم صيفي قائظِ الحر مِن شهر آب اللهَّاب، غادر المهندس علي مكان عمله بعد أن ودَّع حبيبته ريتا خوري على أمل العودة بعد عشرة أيام لإتمام خطبتها رسميا راجيا أن تكون أمها قد قررت قرارها الأخير بالموافقة بعد ترددها لترحم القلبين العاشقين.. توجَّه مع صاحبه الأصفر إلى محطة القطار الذاهب إلى بغداد، وما إن استقلا القطار حتى استرخى علي، فلقد بذل مجهودا كبيرا في العمل في الأيام الماضية.

وكان الأصفر جالسا ينظر لصاحبه المتعب حتى ارتفع صوت المؤذن معلنا صلاة الظهر، فنهضا لأداء فريضة الصلاة على متن القطار، ثم جيء

بطعام الغداء، وكان شهيا جدا، وأخذ الأصفر يلتهم الطعام بشراهة حتى امتلأت معدته عن آخرها، وما إن نام صاحبه حتى خلا إلى نفسه يتذكر تعب وإرهاق الماضي، ويبتسم لحاضره السعيد.

ووصل القطار إلى محطته الأخيرة، وقد جعلت الشمس تغرب مسرعة، فترك الأصفر صاحبه، وتوجه إلى زيارة الأضرحة المقدسة، وكان مِن عادته وعائلته أن يذهب للزيارة كلما همَّ بسفرٍ أو عاد منه.

ووصل علي إلى بيت العائلة، وكانت زينب بانتظاره، فاستقبلته بحرارة الأخت البائسة المظلومة التي تحتاج لأخيها وسندها في الحياة الموحشة، وحلَّ المساء وأقبل الظلام، وعلى ضوء النجوم الباهت، وفي حديقة الدار قالت وهي تحاوره:

– متى تتزوج يا أخي وأرى أطفالك؟.. إنكَ كبرت وتجاوزت الأربعين

نظر اليها نظرة محبة، لكنه ظل صامتا مبتسما.

– بشرني يا أخي.. أراكَ مبتسما مشرقا

فابتسم أكثر ثم قال:

– سأقول لكِ.. لقد تعرفتُ على فتاة جميلة وطيبة ومثقفة مثلك

– أكمل أكمل

– إنها كاملة الأوصاف.. ولكني قطعت عهدا على نفسي ألا أتزوج إلا بعد أن تتزوجي وأطمئن عليكِ في بيت الزوجية.. لا أريدك أن تعاني معاناتين

- كيف أعاني معاناتين؟!

- أحلام وريتـا

- هل اسمها ريتا؟

- أجل

- اسمها جميل.. لكنه غريب

- إنها ليست مسلمة.. هي مسيحية وهذا الأمر قد يؤرقني شيئا ما

- لماذا يؤرقكَ؟!.. أو ليست عراقية؟

- بلى إنها عراقية يا عزيزتي.. ولكن هذا حديث يطول شرحه.. سأشرحه لكِ فيما بعد

ومرَّ صباحٌ، ومرَّ مساءٌ، ولم يأتِ عثمان، وكلما يُطرَق البابُ تركض زينب مسرعة لعلها تجده واقفا في باب الدار مع أهله وبيده باقة ورد، ثم صارت كلما مرَّ يومٌ ازداد يأسها، ثم صارت تنظر تكرارا إلى مقياس الكهرباء لأنَّ فيه شيئا مِن الذكريات الجميلة والبائسة في آن واحد، ودائما تتساءل وتفكر في حزن وقلق: (هل سأظل هكذا كل يوم أطارد طيفه الهارب المفقود بين الركام؟!.. كيف يكون بداخله ذاك القلب الحنون مع تلك النذالة والخسة؟!.. كيف يجتمع الشر والخير بنفسٍ النفس؟!.. لكن ربما هو مريض مرضا أنساه الدنيا فنسيني فيها.. وربما تعطَّل هاتفه؟..إنه شاب مهذب، وإن غدا هو موعـد تسديد أجور الكهرباء وسيحضر.. أنا متأكدة.. أنا مشتاقة له ولكلماته.. ولكن إن لم يحضر فماذا سأفعل؟.. إنَّ الإحساس بالخيبة والخذلان يجرفني

إلى أبعد نقطة.. تتملكني الأحاسيس المتناقضة.. يا إلهي رفضا بالقلوب الغضة)

وأقبل اليومُ التالي على رجلٍ غريب يطرق الباب، فخرجتْ مسرعة، وارتفعتْ دقات قلبها قبل أن ترى الطارق، وفتحت، فإذا برجلٍ خمسيني يرتدي قميصا أبيضَ وقبعةً مصنوعةً مِن الخوص لتقيه حر شمس آب اللهَّاب.. يحمل بيده رزمة مِن الأوراق، وقد بدت عليه آثار العطش.. وقفت تحملق به، ثم بادرته بالكلام:

– تفضَّل يا عمي.. بماذا أخدمك؟.. مَن أنتَ؟

– أنا موظف الكهرباء الجديد للمنطقة.. جئتُ لقراءة المقياس وتحصيل المال

كانت صدمة ومفاجأة غيَّرت مجرى حياتها.. تسمَّرت بمكانها، ولم تنبس ببنت شفة إطلاقا وراحت أفكارها بعيدا وهي تتذكر اللقاء الأول مع عثمان، وجالت أفكارها مع حديثه العذب وكلامه الجميل وملابسه الراقية الأنيقة.

– ماذا بكِ يا ابنتي؟.. ألا تسمحين لي بالدخول؟.. إنَّ الجو شديد الحرارة هنا عند الباب

– آسفة.. تفضل يا عمي

تشجعت قليلا وسألته:

– لكني أراكَ للمرة الأولى هنا في حينا.. أين الشاب الذي كان يأتي قبلك؟

– انتقل للعمل في مدينته.. ولن يعود إلى هنا بعد الآن.. لقد خسرناه.. إنه شاب طيب صاحب أخلاق فاضلة ومبادىء.. ويعمل بإخلاص

كان الخبر على مسامع زينب كالصاعقة، فدخلتْ في حياة فاترة موحشة لا خير فيها لعواطفها وقلبها بعد أن كانت تلهو وتمرح.. أحسَّت أنها أصبحت في ثانية امرأةً طاعنةً في السن، كثيرة الحزن جافة العواطف والأحاسيس والآمال، ينتظرها مستقبل مجهول.

وكشفت لها الأيام أنها كانت مغالية في حبها واهتمامها وتفاؤلها، وتحول مسار حياتها فجأة، فيا لسخرية القدر!.. لم تجنِ مِن لقائها بعثمان سوى تذكرة مجانية لدخول المقبرة، وضاقت ذرعا بالحياة وبكل شيء حولها وهي تكتشف الحقيقة الموجعة، تتهم طيبتها تارة، وتتهم القدر تارة أخرى، فصارت ساخطة كلَّ السخط على الاثنين، طيبتها والقدر.

وتغيرت نفسية زينب تغيرا تاما بعد أن تركها الحبيب المنشود، وهي لا تعرف ماذا أصابه، وفي أي حالٍ هو، ومنذ ذلك اليوم الأسود عرفتْ أرق الليل، وعرفت الأحلام والكوابيس المروعة، فقد كانت صورة سليطة اللسان تتمثل لها في كل ليلة، وفي كل زاوية مظلمة، ودائما تعود فتقول في سرها: (مِن الخطل والغباء المطلق الاطمئنان والتصديق بعهود الرجال.. لم أكن أريد شيئا منه غير قلب يكون وسادتي حين تعصفني الهموم.. وروح ألتحف بها لتمنع عني برودة الشتاء القارص.. وكوخ صغير في أعلى جبلٍ منعزلٍ يتركني به ويخرج ليصيد لي الأماني العذاب فتكون طعامنا وشرابنا.. ما زلتُ أتذكر ملامح وجهه.. وكيف لي أن أنساه بعد ذلك اللقاء الذي غير

حياتي.. لكني الآن قد خسرتُ كلَّ شيء.. ليتني حين انتهيت مِن دراستي الجامعية قبلتُ الوظيفة لأتلهى بها.. رفضتها لرعاية أحبتي.. فمن يرعاني الآن؟

وأصبح صباح يوم جمعة هادئا مشرقا مِن أيام أيلول وقد انخفضت درجة الحرارة قليلا، وجاءت أحلام ومعها أبريق الشاي، وأخذت زينب مِن معصمها، وتوجهت بها للجلوس تحت شجرة التوت، ثم قالت:

– كلميني يا زينب عن شيء مِن حياتك السابقة.. مثلا عن أبيكِ الله يرحمه وشعورك حين مات.. دعينا نتسلى قليلا يا عزيزتي

استغربت زينب لما تطلبه، لكنها استجابت لها فقالت:

– كنتُ طفلة في السابعة مِن عمري حين أتي الأصدقاء به ميتا.. ووقفت أمي في ساحة الدار وهي تصرخ وتبكي أشد البكاء عارية الرأس بكاء مريرا مصحوبا بهيجان مطلق.. وأتذكر كيف قطعت ضفيرتها السوداء ورمتها في الأرض.. كان يوما صيفيا حارا قائظ الحر مغبرا.. وما إن سمعت نساء الحي صراخ أمي ونحيبها حتى ازدحم فناء البيت بهن.. خفت كثيرا ولم أعرف ماذا يجري.. لكني كنت أبكي معهن.. لا أعرف ساعتها هل هي شفقة على أمي أم نوع مِن المشاركة في البكاء لا أكثر.. أم بسبب منظر أبي المسجى على الأرض.. وأحسستُ بصدق بكاء نساء الحي.. كان بكاءً نابعا مِن القلوب الصادقة.. وكان عويلهن نابعا مِن أعماق قلوبهن لأنهن كن يحببن أمي ويحترمن أبي أشد الاحترام.. فقد كان رجلا متزنا تعلوه الهيبة والوقار.. كان رحيما بالجميع.. لا يخلف عهدا ولا يغدر بأحد ولا يقول ما لا يفعله..

في ضحكته أنشودة الربيع.. كان لطيفا حتى في غضبه.. كثيرا كان يساعد نساء الحي بكل شيء وخاصة أيام الحرب

وتوقفت زينب عن الكلام فجأة، فقد شعرت برغبة ملحة في البكاء، فبكت حتى أنهكها البكاء، واقتربت منها أحلام تربت على كتفها وتسألها:

- كيف مات يا زينب؟

- وكيف يموت رجالنا؟!.. في الحرب

- آسفة.. فقد ذكرتك بالأحزان

- لا عليكِ.. حياتي كلها أحزان

- لماذا تقولي ذلك؟!

- لا شيء

وكان المهندس علي قد ذهب إلى الجامع القريب مِن البيت لأداءِ صلاةِ الجمعة ولقاء أصدقائه هناك، حيث إنه أمضى فترة ليست بالقصيرة وهو بعيد عنهم، وقد اشتاق لهم، وبعد انتهاء الصلاة ورؤية الأصدقاء قال للأصفر:

- أريد أن أرى خالتي أم الأصفر

- طبعا طبعا يا صاحبي.. تنورنا

كان يريد استعادة الود القديم ووصل ما انقطع، ولكنه بهت حين سمع كلمات قليلة مِن أم الأصفر آلمته، وأعادت نظرته التشاؤمية إلى سابق عهدها، وأدرك أنَّ هذه العائلة ما زالت في جو مشحون بالحقد والغل على زينب و، وما زالت تتملكها رغبات مكبوتة للانتقام.

- لقد عادت لأمك ذاكرتها الأولى

- لا تؤاخذها يا علي.. فما حدث لي على يد زينب ليس بهين

وهناك ببيت علي وأخوته، ودون أن يُطرَق الباب، إذا بسليطة اللسان تفتح الباب لنفسها وتدخل بكل حمقٍ سافرٍ وكأنه بيتها.

- نحن هنا يا أمي تحت شجرة التوت ومعنا أبريق الشاي

- وهل هذا وقت الشاي يا بخيلة؟!.. اذهبي وجهزي لنا طعام الغداء في هذا المكان اللطيف الهادىء.. آه يا زينب آه.. مكان رومانسي جميل مناسب للقاءات الخفية.. يبدو أنَّ لهيب الشوق مستعر لديك هذه الأيام يا زينب حتى إنك تجلسين هنا تحت الشجرة كثيرا.. إنه الحب الحب والشوق الشوق.. أليس كذلك؟.. أخشى أني قطعتُ حبال ذكرياتكِ

شعرت زينب بكلمات سليطة اللسان وكأنها فك مفترس يريد التهامها، واستحوذ عليها رعب قاتل، وهي تنظر لها بنظرات مريبة

- يبدو أنكِ جئتِ لتلقي عليَّ خطابا جديدا.. ولكني لا أحب هذه التلميحات والتجريحات.. إذا كان عندك كلام مهم فلنتكلم صراحة.. وليس هنا في هذا المكان.. أخي علي قد يأتي في أي وقت

- إنه مكانك المفضل.. مولد الذكريات الجميلة.. حسنا يا عزيزتي المدللة.. سألقي عليكِ كلمات قليلة أتمنى أن تحفظيها جيدا

- تفضلي أسمعكِ

- أولا لن يعود صاحبك بعد الآن.. هذه حقيقة يجب أن تدركيها.. فقد أصبح أثر مِن آثار الماضي وصار كالخيال....

- وثانيا؟..

- ثانيا أنا أعطيك مهلة سبعة أيـــام فقط وحتى عشية الجمعة كي تفكري بالأمر الذي سأعرضه عليكِ.. ويجب أن تكوني عاقلة ومتفهمة وألا تتهوري وألا تتأخري ساعة واحـــدة بعـد الأيام السبعة.. هل تسمعيني جيدا؟

- أسمعكِ

- إني أعرض عليكِ الزواج مِن أخي شريف.. ففكري وتصرفي بتعقل.. لأنَّ أي تصرف غير لائق فإني أقسم بكل معتقداتي ومقدساتي على أن حبل المشنقة سيتدلى من على شجرة التوت اللعينة وبيد أخيك أحمد ليلتف حول رقبتك وينتهي أمركِ

- لِمَ كل هذا؟!

- هل ستبدأين التمرد؟

- فقط أسأل يا خالة

- أحذركِ من أن تقومي بأي عمل طائش ولو كان همسا.. فإني سأعرفه بعد ساعة مِن الزمن أو ساعتين على الأكثر.. ولو كان ذلك العمل تحت جنح الظلام أو في عمق البحر.. أنا أقرأ أفكاركِ بمجرد النظر إلى عينكِ

كان الموت أهون عليها مِن سماع هذه الكلمات المقززة المحملة بالتهديد والوعيد وهي التي نذرت حياتها لخدمة ، كيف ستكون نهايتها على يد أحدهم؟

قالت لنفسها في حسرةٍ بينما كانت سليطة اللسان تتجرع الشاي كما يتجرعه الأصفر: (أظن أنني سأتزوج كما تزوجت أمي وجدتي مِن قبل..

لقد كتبت التقاليد أقدارنا.. أوه، أريد أن أبكي ولكن لم يبق في عيني دموع.. لقد ذهب خيالي بعيدا يومها.. نعم وسرقت العيون سرنا الصغير.. إنَّ طيبتي وحمقي هما ما فضحاني.. لكن ماذا ينفعني بعد أن اكتشفتُ تلك الحقيقة مؤخرا.. لقد ذهب عمري كله في دهاليز النسيان هباء منثورا)

وكظمت حسرتها وغيظها، وقالت تجاريها حتى ترى مخرجا:

- كلميني عن أخيك

- أخي شريف هو سيد الرجال وبطل الأبطال.. فإن أردتِ الزواج مِن رجل حقيقي فهو أخي شريف.. إنه نعم الزوج والرفيق.. وللعلم هو متزوج ولديه خمس بنات وزوجته الملعونة المسماة فوزية لا تلد إلا بنات فقط.. وهو غير متعلم لكن تقول الأمثال إنَّ الرجل لا يعيبه إلا جيبه.. وأخي رجل غني لديه أراض واسعة وبساتين غناء بالنخل والعنب والبرتقال.. ولديه سبعين رأسا مِن الأبقار والجواميس ومثلها مِن الماعز والأغنام.. ستكونين ملكة زمانك هناك معه

كانت سليطة اللسان تتحدث وهي مبتسمة واثقة مِن كل حرف تنطقه بكيد نسائي غامض، وإنها ليست امرأة عادية، إنها بركان يخفي تحته الحرائق الملتهبة والأعاصير المميتة والزلازل والبراكين، ثم تخرجها رويدا رويدا، وكل حريق في وقته وساعته التي خصصته له مسبقا.

وكانت تريد أن تحول زينب إلى نسخة متكررة منها، فتعاني كما عانت هي في شبابها، وهي في أعماقها وظواهرها تهوى وتجيد التكبر والتسلط والانتقام، عوضا عن ذلك كانت تفكر في أن تزوج علي ابنة أختها وتسيطر كليا على

البيت والعائلة، وهي لا تدري بأنَّ قلب علي منشغل بزميلته في العمل ريتا خوري التي أمست حب حياته كله.

أحسَّت زينب بأنَّ صدرها يضيق ويختنق، وقد اعتلاها الكرب، فخرجتْ مِن المكان وتركتهما يقهقهان بضحكات عالية مستفزة.. أردفت أحلام:

– لكن ماذا لو عاد صاحبها خلال هذه الأيـام السبعة؟

فقالت سليطة اللسان بثقة:

– لن يعود.. أنا متأكدة مِن ذلك.. وإن حدسي لا يخطىء

– لكن افتراضا لو عاد.. ماذا سنفعل؟

– لا شيء.. فليتزوجا ويخفيها عن هنا.. يبقى أن نزوج علي مِن ابنة خالتك

– لكن الأفضل طبعا أن نأخذ الاثنين علي وزينب

– طبعا.. أنا أريد بشدة تزويج هذه البائسة لخالك شريف كي يذلها ويكسر كبرياءها ويمرغ أنفها في الوحل.....

– وقاطعتها أحلام ضاحكة بخبث:

– هل هذا فقط يا أمي؟

– وأنتقم مِن زوجته الملعونة البخيلة فوزية هانم التي سيطرت على مزرعة والدي ونهبت كل شيء.. آه منكِ يا أحلام!.. تفهمينني في كل شيء

– إنكِ داهية يا أمي وذات عقل مخيف.. مِن أين لكِ هذه العبقرية وهذا الدهاء؟!

فصاحت كالمستعيذة بالله:

- الله أكبر.. قل أعوذ برب الفلق.. قل أعوذ برب الناس

فضحكت أحلام حتى استلقت على ظهرها مِن الضحك، وبان صدرها فقالت أمها:

- انهضي أيتها الحمقاء واذهبي والبسي أي شيء محتشم.. صدرك ظاهر وبارز ومثير ياملعونة.. ماذا لو جاء علي الآن ورآك.. سيهيج عليك يا فاجرة

ومضى اليوم الأول والثاني ولم تفكر زينب بالتهديد والوعيد الذي قطعته سليطة اللسان، أما في اليوم الثالث فقد تجدد في نفسها ذكرى التهديد، فساد الصمت على محياها قليلا، وأدركت بأنَّ سليطة اللسان لا تمزح في تهديدها، وانتابها شعور بالخوف وأنَّ مصيرها أصبح على المحك، لكن سرعان ما عاد لها عزمها ورباطة جأشها: (نعم لن أتزوج شريف هذا لأني لم أسرق ولم أقتل.. ما زلت عذراء)

ولم تحتمل فكرة أن تكون متزوجة مِن رجل قروي ومتزوج وله خمس بنات، وأن تعيش مع كل هؤلاء تحت سقف واحد، وصار في عينيها دموعٌ مكابرة، وفي قلبها أحاسيسُ متناقضة بصمتٍ مخيف، وهي تسأل نفسها: (لماذا تفعل معي كل هذا الإجرام كي أتزوج مِن أخيها؟.. ألا توجد نساء في قريته؟.. أم أنها تكرهني لهذا الحد الذي تريد معه تدميري ورميي رمية سوداء؟ أم أنها تريد أن تزيلني مِن هنا وتسيطر على البيت ليكون لأحلام فقط؟

ثم أردفت تقول في نفسها: (لن أتخلى عن حياتي وعن كياني بمجرد أني أسمع كلمات مِن تلك التافهة عديمة الإحساس.. إني أريد أن أعيش حياتي كما أريد.. ولن أتقبل منها أي كلام عن الطريقة التي يجب أن أعيش بها.. أنا حرة ولا ينقصني شيء لأكون دائما حرة.. وما كلامها إلا مجرد ترهات وخزعبلات.. إنَّ حياتي ملكي أنا وليست ملك سليطة اللسان.. أنا لست جارية في بيت أبيها.. ولن أكون جارية لأخيها.. مِن حقي أن أحيا كما أريد وليس كما تريد هذه المجرمة)

إنه الإحساس الذي خالج نفسها بالعزم والقوة في تلك الساعة المتأخرة مِن الليل، وقد ظلت في خواطرها العازمة تلك حتى انبلج الصباح وأشرقت شمسُ نهارٍ جديد.

وفي اليوم الرابع على التهديد، قررت أن تروي حكايتها لأخيها علي، إنه متفهم أكثر مِن أحمد، وإنه يجبر بخاطرها دائما، وقررت أن تتوسل إليه وتطلب منه مساعدتها في التخلص مِن سليطة اللسان.. كانت في أعماق شعورها تريد أن تحتضن علي وتبكي على كتفه فقط، ولكنها تخشى مِن دموعها أن تفضحها.. إنَّ الحياة لا تستحق كل هذا الحزن الطويل، وإنَّ كلَّ رعب وكل حزن لا بد له مِن نهاية، وسيرى كل باحثٍ عن النور مراده في نهاية النفق المظلم.

أغمضت عينيها على جفنيها بقوة لشدة ما أرَّقها السهر، وعيناها تحدقان في زرقة السماء، ولا تكف عن أن تغيب مع نفسها تناجيها: (آه ياشجرة التوت كم كنتُ أكرهكِ وأكره تنظيفكِ.. أصبحتِ الآن سلوتي وذكرياتي

القليلة الجميلة والعليلة، وما زال عطر عثمان مغمورا في أغصانك.. يتولد لدي إحساس أن أكون أحد أغصانك الطرية لأحمل عطره العالق بك بين حشاياي.. وكأن شيئا فيكِ يناديني بالانضمام والتوحد معكِ.. وأنا الطفلة والصبية والفتاة التي عاصرت نموك وعشقت جذورك وتربتكِ.. نحن يتيمتان نشأنا سويا في هذا البيت.. تزهر أوراقنا معا في الربيع وتقع في الخريف كشبيهتين ولدتا وعاشتا سويا.. تعتريني أفكار هوجاء الآن أنني سأموت يوم فنائك مِن بيتنا بأي شكل.. أو أنكِ ستذبلين عمدا وتموتين يوم موتي.. كم تمنيتُ أن أنقل فراش نومي مِن داخل البيت لظلك في الليل والنهار.. أنتِ سمائي التي تحفظني مِن هجير الصيف الحارق.. وأنتِ غطائي الذي يأويني مِن برد الشتاء القارص.. لو وكل لي الأمر لبقيتُ أعيش بقية حياتي هنا أتنقل بين فروعك كطير مغرد.. سأظل ألبث الساعات وأرافقك حتى يعود ثالثنا.. سنظل ننتظر أوبتك هنا معا وإن طالت يا عثمان)

***

الفصل التاسع

وفي اليوم الخامس على التهديد نهضتْ زينب مِن نومها يائسة، وتلك قد صارت حالتها، تتأرجح بين الصبر والجزع، وبين الرضا والسخط، وبين الرغبة في المواجهة ثم الرضوخ.. قالت لنفسها: (إنَّ أحلام لا شك ستطعن بي ما حلا لها الطعن.. وستضيف كلمات وعبارات كعبارات أمها الخادشة.. وإنني لا أنسى أبدا يوم هجمتا عليَّ بشراسة كي تضرباني، لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم العصيب.. آه!.. كيف لي بذاكرة هادئة خالية البال فارغة مِن كل شيء يؤرق؟!.. مَن مثلي يتحمل هكذا إجرام؟.. إنني الآن في عداد الأموات.. بل إني ميتة بالفعل.. دمرني الخذلان.. وقهرني حزني المكتوم والمكبوت.. لم يبق لي مِن حل إلا الاستسلام للقدر الذي وضعتُ نفسي فيه.. إني أستحق كلَّ هذا)

وفي اليوم السادس على التهديد اقتنعت تقريبا بالرضوخ لمطالب أم أحلام، وأهملتْ نفسها أشنع أهمال، أما جبينها وعيناها فقد غشيهما الاصفرار والاكتئاب، حتى إنها نسيت كيف كانت الضحكة والابتسامة

الحقيقية، فإذا ابتسمت كانت ابتسامة جافة كالأرض البور.. أين ذهب ذلك الحسن والبهاء الذي فاق حسن أمها وخالاتها؟.. حتى إنها بالمأساة والقهر والألم قد فاقت أمها المرحومة حتى صارت تألف هذه الحياة وتعتادها، واقعٌ مرير، وحزنٌ مكبوت أشد حلكة من الليـــل البهيـم، لم تكن تستطيع التنفس ولا تستطيع النوم.. كانت تختنق.

وفـي اليـــوم الســـابع على التهـديـد بعد أن أدت صلاة الفجر وقرأت الأذكار جلست وحدها في هدوء تام لتقرر مصيرها بنفسها وهي تقول: (إنني متأكدة أنَّ أخي علياً بطيبة قلبه وصدق نيته الذي ورثهما عن أبي سيصدق كلامهما إذا لم أوافق على شرطهما.. فماذا سيفعل بي بعد أن يسمع ترهات سليطة اللسان وابنتها الملعونة؟.. لا لا .. لا يمكن ذلك.. لا يمكن أن يصدقهما ويكذبني.. أنا أخته؟.. لكن ماذا عن أحمد؟.. الملعونة أحلام ستنتظر عودته بفارغ الصبر كي تبلغه.. أنا متأكدة أنه سيصدق كل كلماتها التي ستمليها عليه بمجرد أن تخلع أمامه ثوب نومها ليرى جسدها العاري.. أنا أعرف أخي جيدا.. إنه ضعيف أمـام بياض جسمهـا وعيونهـا المكحـلة وخصرها النحيل.. إنه رجل ضعيف لا قبل له بمكرها.. آه!.. قد سقطت بين فكي امرأة مفترسة ستلوث بمخالبها طهارتي.. علىَّ أن أقبـل بشرط سليطة اللسان وأتزوج هذا الشريف غير الشريف لأحافظ على سمعتي وسمعة عائلتي.. ولكن سيـأخذ جسمي فقط.. أما الـــروح فستكون هناك مـــع البعيد القـريـب الـذي اختفى فجـــاة.. يا لحماقتي وبـؤسي وشقائـي!

اليوم هو يوم للحزن والبؤس الذي ليس كمثله يوم.. اليوم ستتذوق زينب مـذاق الألم والقهر الحقيقيين لأول مرة.. كانت تلك الساعة مِن أصعب ساعات حياتهـا.

كانت وحدها وأحلام بالبيت، وكانت مستلقية على الأريكـة، أريكـة أمها بعد أن ارتفعت الشمس قليلا في الأفق وقبل أن تأكـل أي شي، أو حتى تشرب شاي الصباح، تفاجأت بدخول سليطة اللسان إلى باحـة الـدار، حيث استقبلتهـا أحـلام في ابتهـاج وحفـاوة.

وظلت زينب مستلقية على أريكتهـا شديـدة الشحـوب، وما إن نظرت لها سليطة اللسان حتى بادرتها قائلة: (موافقة)

قالتها وعادت لصمتها دون كلام آخرَ، فارتفعت الزغاريـد تغمر أرجاء المنزل بفرح غامر، ليس مِن أجل الأحتفاء بزينب، بل للاحتفاء بالانتصار عليها.

– أحسنتِ يا زينب.. سأذهب غدا فجرا إلى القرية لأبشر أخي.. لماذا غدا؟.. سأسافر الآن.. سيفرح أخي كثيرا

– أحسنتِ.. فهذا صوت العقل والمنطق.. إنَّ خالي شريف هبة مِن الله.. قد جاءك في الوقت المناسب.. وإنه فرصة عظيمة أنصحك ألا تضيعيها يا عزيزتي.. فالمرأة الذكية هي التي تنظر للرجال كسلع منها الغالي الذي نكتنزه والرخيص الذي نحتقره

وكانت زينب تنصت لها وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة، ثم لبثت مستلقية على ظهرها يومين كاملين بدون أي حراك، تسمع نداء الطعام، لكنَّ قدميها لا تحملانها بتاتا.

وعن سليطة اللسان فقد وصلت بيت أخيها وعلى شفتيها ابتسامة مرحة.. قالت:

– لقد جئتكَ يا أخي ببشارة أستحق عليها خلخالا مِن الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين

– أخبريني إذن ولا تقلقي

– أعرف أنكَ لا تفكر إلا بالولد

– تكلمي بسرعة.. ما الأمر؟

– إنها هدية مني لكَ.. ثمينة وجميلة كاللؤلؤة المكنونة.. سأقدمها لك على طبق من ذهب يا أخي العزيز.. ولكن ليس قبل أن تعدني بخلخال الذهب

– حسنا أعدك يا صاحبة العينين الفارغتين التي لا تشبعان.. تكلمي وإلا رميتك في البئر

– سأزوجكَ مِن فتاة جميلة جدا.. ليست بالسمراء ولا البيضاء.. من شفتيها الورديتين تفوح رائحة الياسمين.. في سواد عيونها كحل رباني.. لكنها ممتلئة قليلا.. لكن هذا يفيد في المضاجعة أيها المحظوظ

– كيف؟

– كيف تسألني هذا السؤال أيها البذيء؟!.. أنتَ أدرى

– دعكِ من هذا.. لكن صفيها لي أكثر

– إنها في وداعة ملاك رقيق.. أما لسانها فينطق شهدا.. هيفاء الخدود.. باريسية القوام

- ألم تقولي إنها ممتلئة.. كيف باريسية؟...

- أيها المراهق.. فعلا كان يجب أن آتي لكَ ببقرة كأبقارك لتعاشرها

توجَّه علي صباحا إلى محطة القطار ببغداد بعد أن ودَّع زينب وهو كله أمل بلقاء حبيبته ريتا في مساء يومه، والغريب أنه خلال أسبوعه الكامل لم يلحظ غم وهم أخته، هذا لأنها لم تخبره بشيء، إلى جانب أنه كان في عالم ثانٍ بعيد مع ريتا، عالم الحب والهيام والاشتياق، وبعد طول طريق السكة الحديدية المرهق وصل القطار أخيرا إلى محطة البصرة، كانت المحطة تضج بالمسافرين والباعة المتجولين والجنود وطلاب الجامعة، وكان الليل قد غشي البصرة، ومع ذلك داعبته نفسه بالحنين والذهاب للنظر في عيني عشيقته، وأحسَّ الأصفر باضطرابه فقال له ضاحكا ساخرا:

- اذهب إليها ولا ترهقني معك

- يا ملعون كيف عرفتَ بما في داخلي؟!.. أنتَ شيطان في صورة إنسان

- أنا ملاك صالح.. لكنكم لا ترون ذلك فيَّ

- ما هذا الكلام؟!.. هل غضبتَ؟!.. كنتُ أمزح

- سأسامحك فقط بسبب هذا العشق الذي يملأ عينيكَ لريتا.. لن أكون أنا وهي

- أصيل يا أصفر

- هل ستذهب الآن؟

- أريد.. لكن أمها عقبة كبيرة في طريقنا

- لا أعرف ماذا أقول لكَ.. افعل ما تراه مناسبا

- إذن سأنتظر لأراها غدا في العمل.. هيا لنأكل

ونشر الظلام ستائره الأكثر سوادا، وجلسا للطعام، وكان صوت المروحة السقفية طاغيا على تلك الجلسة حيث كانت تسحب الهواء وكأنه لهب يمر على الوجوه فيحرقها مع أنَّ طقس البلاد كان قد تحسن شيئا، لكنه عاد.. ربما أنَّ لهيب أشواق العشاق يصيب الطقس بما فيه.

- كيف الشفاء مِن لوعة الحب والغياب يا أصفر؟

- بالنسيان.. انسَ كما نسيتُ

- مَن يتحدث؟

- الشيطان اللعين

- بل هذا كلام مَن لا عقل له.. ومَن لم يذق لوعة الحب والاشتياق

- اسكت يا علي اسكت

- أتعرف أنتَ شيئا عن الحب؟

قالها علي بحمق، ولجأ الأصفر للصمت، وجالت زينب بداخله لهذه الكلمات: (آه لو كانت وافقت!.. ما بالي لا أنفكُّ أتذكرها!.. شاب شعر رأسي وما زلت أعزبا ومتنقلا مِن مكان إلى آخر وحيدا هائما في أرض الله.. قاتلَ اللهُ الحزنَ واليأسَ.. إنهما يدمران البدن ويشلان العقل ويقتلان

القلب.. إنه موت مؤقت هذا الذي أنا فيه.. أنا في شقاء شنيع ولا أحد يدري.. وأولهم هذا الأحمق أخوها الذي يظنني لا أعرف شيئا عن الحب)

وانتبه الأصفر على صديقه علي يقلب بملعقته الطعام دون أن يأكل منه شيئا فقال:

– لا تشغل بالك يا علي.. ليس ثمة ما يدعو لحالتكَ تلك.. أنصحك بأن تذهب إليها الآن لتنهي ألمك.. ربما تجدها في انتظارك.. واحمد الله إن وجدتها بانتظارك.. فغيرك أشخاص لا ينتظرهم أحد.. ومن الألم القاتل أن تحيا وأنت تعلم أنه لا ينتظرك أحد.. اذهب يا علي .. اذهب

– هل هذا رأيك يا صديقي؟

– نعم يا علي.. اذهب لتريح نفسك.. لا تنتظر حتى لا تتعود الانتظار.. ويصبح الأمر روتينيا

وقبل أن يصل إلى دارها استجمع كل قواه العقلية ليشكل درعا واقيا تحسبا من كلمات أمها واستقبالها وحيرتها ما بين رفضه وقبوله.

طرق الباب ففتح له والدها الطيب، واستقبله برحابة صدر، وأجلسه في صالة الضيوف، ثم تركه للداخل، وكانت الصالة الفسيحة الأنيقة مجهزة بمكيف كبير يبعث الهواء البارد كالنسيم الربيعي، فصار الجو بالداخل مع تحسنه أكثر تحسنا.

جلس علي يترقب قدوم الحبيبة ريتا وهو كله أمل ألا يرى أمها، وعسى أن تكون خارج البيت أو مسافرة.

سمع وقع أقــدام تـدخـل أول الصـالة، ثـم بـدت ريتـا في فستانٍ أحمرَ شفافٍ وقصيرٍ عاري الصدر نوعـا مـا، ناثرة شعرها، وتتساقط خصلاتٌ منه على صـدرها الكبير، وترتدي سوارا وأقراطا ذهبية، وقـلادة فـي وسطها حجر ياقوت يرتكز بين نهديها البارزين إلى الأمـام وكأنه يحرسهما ويزينهما، والحقيقـة أنَّ نهديها هما ما يزينان القلادة.

كـاد يطير من الفرحــة والنشــوة ما إن رآها واقفة أمامه مبتسمة تعلــوهـا الغبطــة والســرور، فوقف لها، فأومأت إليه بأن يجلس وجلست.

– أهلا ومرحبا

– أهلا ريتا

– كيف تركتني سبعـة أيـام وخمس ساعات وتسع دقائق؟.. كيف طـاوعك قلبـك؟

– لـم تغيبي عـن ذاكـرتي وأحاسيسي لحظـة واحـدة

– أنا كذلـك يا علـي وأكثر.. أذكركَ دائما في خلواتي وحين انشغالي .. وفي ليلي الطويـل في سهـادي ورقادي.. ماذا فعلتَ بقلبي الـذي يتلاطـم داخـل صـدري؟

– فعلتُ به ما فعليته أنتِ بقلبي.. لقد خُلِقنا لبعضنا يا ريتا

– اشتقتُ إليكَ يا علي.. واشتقت لكلماتك الجميلة

– ما أجملكِ!

وتحركت قليلا مِن مكانها، فانكشف فستانها القصير عن ساقيها البيضاوين المثيرتين حتى إنه قد لمح بنظرة خاطفة منه قبل أن تنتبه لون ثوبها الداخلي، ووجد نفسه يتيه معها في عالم سحري شهواني، ثم نقل عينيه إلى عينيها الظمأيين له كما هو.

– ما بكَ يا رجل؟!.. عيناكَ قد حفرتا لحم جسمي مِن شدة النظر تريد أن تفترسني كلبؤة.. سامحك الرب يا أسدي.. لقد أخجلتني

وجاء الأب الطيب، ثم جاءت الأم تحمل صينية مملوءة بأكواب الشاي، تفوح منه رائحة الهيل والزعفران مع بعض القطع مِن الكعك الممزوج بالسمسم.. جلست بقربهم وهي مبتسمة ابتسامة خجولة غير معهودة، وتبدو علامات الرضا على وجهها لأول مرة.

– المهم عندي هو سعادة ابنتي الوحيدة.. ما الضير إن كنتَ تدين بغير ديانتنا؟.. كان وهما عندي لا صحة له.. أنا موافقة

لم يتمالك علي نفسه مِن الفرحة، وكان على وشك أن ينهض فيرقص.. أردفت الأم:

– طالما ريتا تريدك فنحن نريدك

– أنا منذ زمن أبحث عن الأصل الطيب ولقد وجدتها في بيتكم الكريم.. لقد وجدتها في ريتا

– لكل إنسان نصيب لا يتخطاه

– معكِ حق.. وريتا هي نصيبي الطيب.. وهي النعمة السابغة التي كان يخبئها الله لي.. فقدَّر مجيئي مِن العاصمة إلى هنا

- نشكر الرب.. ونرجو لكما السعادة
- المهم أن تكون ريتا سعيدة معكَ باستمرار
- طبعا طبعا.. اطمئني كثيرا
- وفقكما الرب سويا

***

الفصل العاشر

وصلت إلى مسامع أسماء فجأة أنباء تفيد بقرب زواج أختها زينب مِن شقيق سليطة اللسان، فغضبت وتعجبت لهذا الخبر كلَّ العجب.. كيف لا تعرف إلا الآن؟!.. وما السبب؟.. وكيف وافقت زينب على الزواج بهذا الرجل القروي الذي لا يعرف في حياته سوى الأغنام والماعز والدجاج؟!

لقد كانت زينب تطلق عليه دائما لقب الرجل الأخرق، كيف تتزوج منه الآن؟.. إنه أسوأ خبر سمعته منذ مات أبوها وماتت أمها ، وصارت تكظم حزنها وغيظها أمام أطفالها على ما آل اليه أمر خالتهم.

وراحت تتساءل: (أعتقد أن الوحدة وخوفها من العنوسة هما ما جعلاها تقبل الزواج من هذا الشخص؟.. ولكني لا أصدق أن أختي المدللة المثقفة تقبل هذا بسهولة.. لا بد أن أذهب إليها لأتأكد منها شخصيا)

وفي هذه الأثناء جاء زوجها متسللا، والتصق بها مِن الخلف وهي واقفة تنظف الصحون.

- لقد أفزعتني يا رجل

- كيف لم تشعري بي؟!

– اتركني.. ابتعد.. إنَّ أولادك كبروا.. لا تجعلهم ينظرون علينا في هذا الوضع

– لا يوجد أحد منهم هنا.. لنذهب إلى السرير إذن أيتها الأنثى الرقيقة

– اتركني وشأني.. لا مزاج لي الساعة

– لماذا لا وأنتَ تعشقين مثل هذا؟!

– مزاجي ليس رائقا

– ما الأمر؟!

– الموضوع يخص زينب.. إنها تريد الزواج من رجل متزوج ولديه أولاد ويسكن في قرية وأبقار وجاموس.....

– هي حرة.. دعيها تقرر مصيرها فهي ليست صغيرة.. والفتاة المحظوظة من تتزوج الآن بعد أن أكلت الحرب نصف رجال البلد

– زينب تستحق أفضل مِن ذلك

– هي أدرى بنفسها وما تريده

– هل هذا رأيك؟

قالتها وهي ترمقه بنظرة امرأة هائجة منتشية، فقال متلهفا لها:

– نعم.. وتعالي معي إلى السرير

وألقت بالصحون مِن يديها وهي تنظر له نظرات أنثى محمومة بالجنس، وما أن دخلا غرفتهما وأغلقاها عليهما حتى سارعت تنزع عنه ثيابه وثيابها وهو يداعب نهديها، ثم حطَّ عليها وهي تحته تتأوه ويقول لها:

– دعي زينب تتزوج.. فلا شك أنها تشتاق لهذا

- إن كان سيكون وحشا هائجا مثلك هكذا فلا بأس.. فلتتزوج

- هل أعجبكِ؟!

- كثيرا كثيرا.. أنسى الدنيا تحتك يا جبار

- وأنا.. هل أعجبكَ؟

ولم يجب مِن شدة الاستلذاذ وهي تحرك يديها على كل جزء بجسده، فقالت له:

- هيا هيا سريعا

- ماذا تريدين؟

- أنتَ تعرف.. هيا أنا أحترق.. أطفئني

- ألا تكتفي مني

- أبدا

وعاد أحمد مِن الجيش وهو لا يفكر سوى بزوجته الجميلة، ولكن هل ستطلع أحلام زوجها على موضوع زينب مع عثمان هذا أم ستلتزم بوعدها؟.. فهذا الأمر كان يشغل بال زينب ويقض مضجعها كثيرا، لأنها كانت تخاف منه ومن عصبيته الزائدة وخاصة بعد كلام يسمعه من زوجته وأمها، لذلك فقد قررت أن توافق موافقة نهائية على الزَّواج من لتنهي كل مخاوفها وأحزانها، خاصة أنها وجدت أخاها أحمد قد تغير كثيرا معها ما إن دخل حجرته مع أحلام وخرج، فذهب إلى المقهى وأصحابه دون أن يجلس معها، ودون أن يطمئن على حالها وشأنها، وكأنه صار يترقب أكثر من أحلام أن تترك لهم هذا البيت للأبد.

أخبرت زينب أحلام بموافقتها النهائية، فاتصلت أحلام بأمها على الفور لتبشرها، وذهبت الأم فورا لأخيها تبشره، وقد عزمت على أن تبيت الليل هناك، فلها غرفة منفصلة عن بقية الدار:

– اقترب اليوم الذي ستقطف فيه أجمل وأرق زهرة مِن بستاني.. وأنتَ بالطبع لم تكن تحلم بهـا أو بمثلها في يوم مِن الأيـــام يا أخي العزيز

– هذا خبر سار جدا يا أختي

– سآخـذك معـي غـدا لشم عطرهـا بعد أن تعتق دماغـك برائحـة الأغنـام.. ولكن عليك قبل كل هذا أن تذهب إلى حمـــام السـوق وتستحم بالماء والصابون جيدا.. هذا بعد أن تذهب بعدهـــا إلى الحلاق ليحلق شعر رأسك وذقنـك ويعـدل حـواجبـك

– دائما كلامك جارح.. ألن تتهذبي معي يوما

– أنا معك ومع الجميع هكذا.. فهل لديك اعتراض؟

– لا لا.. لكن جمال الرجـل في عقلـه ودماثـة أخـلاقه يا أختي

– هذا كلام ليس له أثر بالنساء.. النساء تحب الرجل الجميل الغني وفقط

– مِن هذه الناحية لا تقلقي

– إذن اسمع كلامي واذهب ونظف نفسك واستحم

– سأذهب طبعا.. لا تقلقي

– وعليكَ أن تـروضها كما تـروض الأحصنة الثائرة.. يا أخي العـزيـز إنها جامحة ومهمتك صعبة.. أما عن مهمتي فسوف تنتهي بمجرد نومها تحتك

وغربت الشمس معلنة عن ساعات من الهدوء والسكينة في هذه القرية المنعزلة المخيفة، وما زالت تناصحه وتأمره وترشده، ثم لاذت بالصمت برهة وهي ترمق أخاها شريف بنظراتها الماكرة الشامتة بزوجته التي لا تعلم ماذا يدور في الخفاء، وغشي ظلام دامس القرية كلها، فالكهرباء لم تصل بعد إليها، وما أمام زينب إلا ظالم حالك كمستقبلها المجهول.

واستيقظ بعد ليلـة أرهقت عقله وغرائزه الجامحة للنساء، وكان نور الضحى قد ملأ أرجاء الفضاء الفسيح، ووقعت عيناه على أخته مباشرة، وقد جاءت إليه مِن حجرتها فدخلت المطبخ، وأقسمت على زوجة أخيها ألا ترهق نفسها في شيء، ثم خرجت حاملة طعام الفطور في طبق كبير مصنوع مِن ليف النخيل وبداخله فص مِن الزبدة، وصحن مِن الدبس الأسود، وخمس بيضات مسلوقة، وبعض أرغفـة الخبز الحارة.. همست له:

– هيا لتفطر يا أخي.. أمامنا طريق طويل للوصول إلى المدينة والعروس

– أخفضي صوتك

– ستعرف زوجتك عاجلا أم آجلا

– ربنا يستر

وأخذها بسيارته الشيفروليه البيكب الحمراء وهي تطوي بهما الطريق الترابي طيا بين الحقول والمزارع وأشجار النخيل المتراصة ومصارف الماء الكثيرة المتقاطعة حتى وصلا إلى الأسفلت، فصار الطريق أكثر راحة وسرعة وسلامة.

ومع ارتفاع صوت المؤذن معلنا صلاة الظهر وانتصاف النهار وصلا إلى المدينة، فنزلت سليطة اللسان بالقرب مِن دارها فيما توجَّه شريف إلى الحلاق، ومِن ثم إلى حمام السوق للاستعداد لهذا اللقاء المرتقب مع زينب.

أحضرت أحلام طعام الغداء وجلست إلى جانب زوجها وبرفقتهما زينب، ووجهها عابس في هذا اليوم أكثر مِن كل يوم، إنه اليوم الذي سيتغير مصيرها فيه إلى الأبد.. قالت أحلام:

– اليوم سيأتي خالي شريف برفقه أمي لكي يخطب زينب، عليك يا أحمد أن تبلغ أخاك علي لتعم الفرحة على كل العائلة....

قاطعها أحمد، وسأل أخته بترفق:

– ماذا تقولين يا زينب في ذلك في هذا؟.. هل أنتِ موافقة على الزواج مِن شريف كما أخبرتني أحلام؟.. قالت إنك سعيدة بذلك.....

– نعم موافقة يا أخي.... وسعيدة

قالت ذلك بلا تردد، وظلَّ وجهها ممتعضا، ثم لبثت لحظات صامتة لا تتكلم وهي تقول في نفسها: (عزائي أني سأظفر بمحبوبي في السماء يوما ما بعد أن خطفته الأرض مني.. وإن كان جرح الفؤاد لا يندمل الآن فلا بد يوما أن يندمل وحينها ستتساوى كل الأمور)

– يا له مِن خبر سار!!.. سأبشر أمي على الهاتف حتى قبل أن يأتيا.. إنها تحبكِ جدا يا زينب.. ولطالما تمنت أن تتزوجي مِن خالي شريف

إنها أحلام الماكرة الخبيثة صاحبة شباك الصيد، وهذا خبثها ومكرها تلوح بهما في الفضاء لتوهم زوجها الغائب أن الأمر طارىء جديد ليس له أساس من حياكة الخدع والتدابير ، ويا لها من منافقة شيطانة وريثة لأمها في كل شيء.

وقبيل الغروب بنصف ساعة طُرِق البابُ طرقا خفيفا، وركضت أحلام مسرعة لتفتح الباب لتجد خالها شريف وأمها واقفين يطلبان

الإذن بالدخول لمقابلة أحمد وزينب، ونهض أحمد مرحبا بهما، ثم تقدمهما إلى غرفة الاستقبال، وقدمت أحلام الشاي مع الفطائر، ثم ذهب وطلب مِن أخته زينب الحضور لمقابلة الخطيب والترحيب به، لكنها حاولت الاعتذار بشتى المعاذير لكي تتفادى هذا اللقاء، فصاح بها أحمد مزمجرا:

– أيليق هذا العبث بلقاء مصيري كهذا؟.. ألستِ موافقة؟!.. أنا لا أفهمكِ

– موافقة ولكن.....

– لكن ماذا؟

وتأخرت زينب وأحمد، وأصاب شريف الملل والفتور ونوبات من القلق، فنهضت سليطة اللسان، وبادرت بالخروج من غرفة الاستقبال بحجة حمل أكواب الشاي إلى المطبخ، فأمسكت بيد زينب وهي تحملق فيها بعينين بارقتين دون كلام، ثم جلبتها وهي تقبض على معصمها ضاحكة ساخرة منها وأدخلتها إلى غرفة الاستقبال.

وكانت المفاجأة بالنسبة لشريف، رآها نعم الفتاة ونعم الجمال والرقة والدلال، إنها المواصفات نفسها التي تكلمت عنها أخته الملعونة، وظنها خجولة قلقة فقال ليكسر حاجز القلق والخجل:

– هدئي من روعك.. ليس ثمة ما يدعو للخجل والقلق.. إنها النظرة الشرعية.. وهي حلال في ديننا

كان يتكلم وهو يفتل شواربه الغليظة، فقالت بصوت مختنق مبحوح:

– أهلا وسهلا.. شرفتونا

ولاحت في عينيها غيمة كدر، ولكن ما الفائدة؟ فلا أحد يكترث لحالها وما آلت اليه حياتها، وكادت تفشي السر لو لا أنَّ أم أحلام بادرت بإثارة النكت المضحكة وهي تشرب الماء البارد المثلج بقدح مِن البلور الأبيض، وزينب تحدجها بنظرات الحقد: (ليت هذا الماء البارد الذي تشربين يكون ماء غسلك لكي يتطهر قلبك المدنس وعقلك الفاسد الحاقد ولسانك السليط.. أنتِ أفعى لا تعيشين إلا بسموم الدسائس والمكر وبغيرها تموتين.. امرأة قذرة وسخة ومثلك ابنتك بنفس الوساخة)

وكان شريف ينظر لها، ويتفحص وجهها، وزاغ بصره وسال لعاب رجولته الجامحة الشهوانية أكثر وأكثر مما تقع عليه عيناه منها فخفق قلبه لذلك.. وحملق في جسدها الممتلىء لائذا بالصمت.. وكلما تقدم نحوها بنظرة وأراد أن ينطق تشعر أنه يحمل مسدسا ويصوب طلقاته تجاه رأسها أو قلبها.. كان كريها بالنسبة لها في كل شيء، وليس له مِن وقار الرجال ولا مِن طلتهم حظ، وتخرج الألفاظ مِن فمه غليظة كصاحبها.

واعتدل بجلسته وهو يملأ عينيه الفارغتين بالنظر إلى زينب، وقال:

– لقد جئتكم طالبا يد ابنتكم زينب زوجة لي على سنة الله ورسوله

– طالما أختي موافقة فأنا موافق.. وأظن أخي علي لن يمانع

فقالت سليطة اللسان:

– لا يمكن لأحد أن يرفض أخي

فنظر لها أحمد نظرة غاضبة وقال:

– لو رفضته زينب ما وافقنا أبدا

– كيف تقول ذلك؟

– أقول إنه غير متعلم ومتزوج ولديه أولاد.. أنا لا أجامل على حساب أختي

– لكن أختك موافقة

– فعلا.. وهذا ما أستغرب له

يتحدث أحمد بهذا الكلام أمام شريف وهو لا يعلم ماذا دار في الخفاء مِن مخططات سليطة اللسان وابنتها زوجته أحلام، حتى انفضَّ المجلس مخلفا غضبا شديدا مِن شريف، وسألت أحلام زوجها غاضبة مستنكرة حين انفردا:

– ماذا فعلتَ يا أحمد؟.. لماذا تتكلم هكذا مع خالي؟

– لم أقصد الإساءة له.. لكني أخاف أن نظلم أختنا

– إن زينب موافقة على الزواج منه.. وقد اعترفت لي صراحة بالموافقة النهائية.. وأخوك علي غير مكترث لنا.. إنه في عالم ثانٍ ولا نعلم السبب.. بقيتَ أنتَ.. فأرجوك أن توافق يا حبيبي.. لا تكسر قلبيهما.

– ولكن خالك هذا غريب الأطوار.. ومهمل في ملابسه ونفسه وكأنه مِن أهل القرون الوسطى.. إنه ينتعل حذاءً مِن الخوص وعليه بعض المساميرِ.. ألاحظتِ حذاءه الذي دخل به إلى الصالة؟!

– يا أحمد .. إن أختك زينب كبر بها السن.. ولم يعد أحد يأتي لخطبتها.. وإنَّ خالي شريف قد جاء في الوقت الضائع.. تلك فرصة ذهبية لن تتكرر

– إنه كبير عليها جدا ومتزوج ووو

– قاطعته قائلة:

– أختكَ هي التي جنت على نفسها بعد أن رفضت كل الشباب الذين تقدموا لخطبتها.. هذا خطأها وعليها أن تتحمل الآن

وسكت أحمد قليلا قبل أن يعقب على كلامها ثم قال:

– معك حق في تلك

ففرحت أحلام وقالت وهي تحتضنه وتقبله:

– أنتَ الآن زوجي حبيبي الذي أعرفه.. سأعطيك جائزة كبرى تحبها كثيرا هذه الليلة

– حسنا سأنتظر.. وسأتصل بأخي علي لأبلغه بخطبة زينب من خالك

ومرت أيام الخطوبة بسرية تامة كانت قد خططت لها سليطة اللسان، وقد نجحت بذلك نجاحا باهرا، ولم يعلم أحد بها.

وفرح شريف عبد الله بخطيبته ابنة المدينة، الفتاة العذراء المتعلمة التي ستصير له الزوجة الثانية، والتي لم يكن يحلم بملامسة فتاة بأناقتها ورقتها يوما ما، حيث مِن الصعب جدا أن تخترق مثل هذه العادات ، فتتزوج ابنة المدينة مِن رجل قروي.

وفي عتمة الليل، قالت بمرارة وهي تخاطب نفسها: (كيف ستمضي بي حياتي التعيسة مع هذا الرجل؟.. لكن على كل حال فهذا أفضل من الفضيحة.. الحقيقة مرة يا زينب.. نعم إنه إحساس بالغربة المفرطة.. سأعيش أكبر أكذوبة في حياتي، إنني أعيش في ظلام

مطبق.. أنا اليـوم كقطعـة خشـب قديمـة لا قيمـة لهـا يقطعـها المنشـار من جميـع الجهـات لتقـدم كوجبـة شهيـة إلى نـار جائعـة.. يساعدهـا الهـواء في التهـام كل شيء فيهـا لتدفىء جميـع الجالسيـن أمامها)

وعلى حـال بين اليقظة والنـوم دقَّ جرس الهاتـف:

– السلام عليكم، كيف حالك يـا أختي العزيـزة؟

– أهلا يا علي.. الحمد للـه.. كيف حالـك أنتَ؟

– لقـد اتصـل بي أحمد وأخبرني بموضـوع زواجـك مـن خـال زوجتـه.. أنا لا مانع لدي إن كنتِ موافقة.. رأيي من رأيك

– لا يهمني موضوع زواجي بقدر ما أنا مشتاقـة لرؤيتـك يا أخي العزيز.. متى تـرجـع؟

– لا أعتقد أني سأرجع في هذه الفترة.. أنا مشغول بموضوع زواجي من ريتـا.. ولـدي متـاعـب جمـة.. سأتكلم معكِ بالتفاصيل لاحقـا.. بلغي سلامي للجميع.. مـع السلامة

قالها وأغلق وساد الصمت، وبردت المشاعر وصارت كالخيال، فقالت لنفسها بأسى: (لقـد ذهـب حلـم العشرينـات الوردي وجفت ينابيع الذكريات.. ماذا حصـل للدنيـا.. آه.. يا ليتنـا لـم نكبـر.. إن أيامي الغالية تتبعثر بـلا رحمـة.. إذن فلأستسلم لقضائي وأترك العمـر يمضـي على أي حال.. فقط عليَّ أن أتجـرع الوحشـة والفـراق والألم دون شكوى منذ اليوم.. انتهى انشغالهم بالحرب لينشغلوا بالنساء.. أنا الآن بلا أخت ولا أخ ولا حبيب ولا أم ولا أب.. فأهلا بالضياع)

وجاءت لحظة الحقيقة مظلمة ومخيفة، ودائما ما تكون اللحظة الأولى عسيرة، كأنها جنون أعاصير لا مفر منه ولا مستقر، حيث وصلت سيارة الزفة مع العريس وأبناء عمه وأصدقائه.

دخل دارها ليأخذها إلى داره، وجلس بجوارها برهة وهي ذاهلة وهو يضحك بصوته المخيف، ولم يمكث أكثر من دقائق معدودة حتى نهض لتنهض معه واقفين، فأشارت إليه بالجلوس قليلا لأنها متعبة، فجلس ومدَّ ساقيه يأكل بشراهة مما وجده أمامه دون اعتبار لأخيها أحمد أو أخته سليطة اللسان وابنتها أحلام، ونظرت إليه وانتابتها نوبة من الشرود بعيدا، وتراءت لعينيها صورة عثمان وهو يجلس بجوارها، وأخذها الإغراق في خيال الماضي، وتنهدت بعمق من أعماق النفس، وهو يتأوه، ولاح الضيق في وجهه، ونفذ صبره، فجذبها إليه بشدة لتنهض، فقالت بصوت هامس وهي تخفض عينيها الغائرتين لشدة الخجل:

- اتركني لحظات قليلة من فضلك

- لا فائدة من هذا الانتظار السقيم

وأشاح برأسه إلى أخته سليطة اللسان لتجد حلا، فنظرت لها غاضبة، فكفكفت دموعها، ولاحت نظرة حالمة في عيونها كأنها نسيم فجر، وعزَّ عليها مغادرة منزل أهلها، فها هنا ترقد الذكريات، وها هناك كم أطلقت العنان لخيالها السارح مع شتى الآمال عن زوج المستقبل، وكم شردت هنا في عالم الخيال والأماني مع فارسها الذي سيأتيها على حصان أبيضَ لينتشلها من هنا لقصرهما الهادىء المنعزل.. كانت بحور الخيبة تمزقها قبل أن تغرقها بها.. كل شيء هنا حسنا وسيئا ستفقده منذ هذه اللحظة وتودعه إلى عالم المجهول.

وصار شريف ينظر لها باستغراب وغضب حاثا لها على السعي للخروج من الدار، وقبل الصعود في السيارة كانت المفاجأة المؤلمة حين التقت عيناها بعيون الأصفر الذي كان في إجازة دون أخيها علي الذي آثر أن يظلَّ هناك بالبصرة لوقتٍ طويلٍ بجوار خطيبته ريتا خوري.

وكان الأصفر قد سمع صوت مزامير السيارات وخرج ليستفهم عما يجري في الشارع، فلمحها بجانب زوجها شريف، فضحك ببلادة قاتلة يائسة، وهزَّت رأسها حزينة متحسرة، وغضَّ الأصفر بصره عنها، ونطقت حاله بالأسى، ولاح في وجهه الارتباك والقهر، وكان مِن حقه أن يتساءل: (كيف لم تقبل بالزواج مني وقبلت هذا الخمسيني الغريب الدميم؟!.. حقا والله إن الله يخلق ويقدر ويرزق.. فلا تحزن على هذه الأحداث يا أصفر.. تعود عليها.. فهي تحدث يوميا كالشروق والغروب)

والتقت عيناهما مِن جديد في نظرةٍ أخيرةٍ ستكون آخر عهد الأصفر بهذا الوجه الطفولي الملائكي، وربما بباب الدار الذي لا ينفك عن أن يرمقه بنظرات الوله كلما خرج من بيتهم مارا به، فإنَّ حول هذا الباب كلَّ ذكريات الطفولة والصبا التي كانت زاده في لياليه الحالكة.

وعاد يتساءل ويجيب نفسه عن كثير من الأسئلة العالقة، ويتنهد أسفا لحاله، وقد كاد عقله يصاب بجنون، ولم يكن يتوقع هذه المفاجاة قط، ولم يعلم بها أحد مِن أسرته إلا هو الساعة، وكيف لو علم أنه متزوج ولديه بنات ويسكن في قرية نائية؟

وحتى صديقه المقرب علي لم يخبره أنَّ زينب ستتزوج مِن رجل غريب، ومع كل ذلك لم يتمنى لها سوء العاقبة، هو فقط اعتقد أنها ترمي

بنفسها إلى التهلكة، وفي طريقها لدفن أحلامها الخادعة، وقد ظلَّ يتطلع إليها طويلا، بينما كانت تسرح بخيالاتها بعيدا عن الجالس بجوارها، وعن ذاك القريب المتيم الصامت النبيل.. كانت مع عثمان الضعيف الخسيس.

وتساءل الأصفر في يأس وكآبة: (متى أراكِ ثانية إن كان في العمر بقية؟.. وما لي أراكِ مهمومة حزينة بجوار ذاك الخمسيني الأحمق؟!.. نظراتكِ تستحق الشفقة والعطف كما أستحق.. لكنكِ البائعة المستهترة بي.. فهيا استعدي للرحيل واتركي قلبي معذبا محموما.. وعليَّ أن أترك الآمال الكاذبة وأهرب مِن الوحشة بكِ إلى الأنس بالناس.. أليس مِن الظلم أن أحمل في نفسي هذا الضيق والضجر وأنتِ لم تلقي لي بالا يوما.. لقد وضعتُ كلَّ الحب الذي في قلبي وجوارحي في بيتكم.. ووضعتِ كل سهام الرفض في قلبي وقلب أمي.. فيا لحماقتي!.. كيف يمكن لذاكرتي أن تنسى ذلك وإن نست هذا المنظر المؤلم ومعصمك يطوقه معصم هذا الرجل القبيح ذي اللحية الحمراء؟.. كيف أنسى؟!.. لقد طُبِعَت صورة اليوم في عقلي وذاكرتي بجوار صورتك القديمة.. وبينما أنتِ منذ الصغر في خيالاتٍ وذاكرةٍ تخلو مني دائما وأنا أقرب الناس إليكِ يقنتُ الآن أني لم أكن لكِ دائما في سنواتكِ السابقة سوى ذاك الكلب الأسود مقطوع الذيل والأذن الذي كان يقف بناصية شارعنا ينبح لكِ فتقذفيه بالحجارة وتمضين لشأنك)

وقطع العريس عليها خيالاتها، وهو لا يكاد يصدق نفسه أنه سينام الليلة مع هذه الفتاة الجميلة، لا يثالثها إلا فورات الغرائز وخطرات النفس الأمارة بعشق النساء.

وانطلقتْ السيارةُ معلنةً ابتداء حياة الشقاء الحقيقية لتلك الفتاة اليتيمة في المنفى الريفي البعيد عن الديار والأهل والخلان.

وكان أثر ذلك في نفسها ذا مرارة فوق مرارة كل شيء بحياتها، وخيبة أخرى تتجرعها مِن خيبات الحظ وصنع الشيطان ونذير شؤم لمستقبلها المجهول، وهي بماضيها قد عاشت كثيرا تتحاشى الاصطدام، وما زالت في أول الطريق الآتي بروح يائسة تتمنى الموت الذي هو رحمة أحيانا حين يكون طعم العيش مغمًوسا بالآلام المتلاحقة.

وما إن دخلا إلى غرفة النوم حتى خفق قلبه بمجرد لمس يديها البيضاء الناعمة، ثم خفق أكثر وهو يفتح سحاب البدلة مِن الخلف، وبدأ نفسه يتصاعد أكثر وأكثر، وسحبت يدها ببطء، لكنه ضغط عليها بقوة وكأنَّ يده قبضة حديدية أمسكت بعصفور مسكين ضعيف، وقبل أن تستقر في حضنه شعرت بقشعريرة تهز جسدها، ولم تلتقِ الشفاه في قبلة ورديه واحدة على الأقل لأنه لا يعرف لذة القبل، ولم تَستشعر بلذة بدلة الزفاف البيضاء، وإنما كانت تشعر وكأنها متلفعة ببدلة حداد، مثقلة بالآلام الفظيعة وهي تقطع أوصال جسدها الغض بسكين صدىء مع حزن مزمن ليس وليد اللحظة.

(فقط جسدي الذي جلبتموه إلى هذه القرية البائسة قهرا هو ما سأفرط فيه، أما روحي فقد بقيت ترفرف هناك على أغصان شجرة التوت، بل ستبقى إلى الأبد ولن تبرح ذلك المكان الطاهر الحبيب)

لم تكد تنهي كلامها مع قلبها وتفرغ الهموم مِن صدرها حتى طُرِقَ الباب وإذا بسليطة اللسان تحمل الفواكه لهما، ثم ما لبثت أن توارت عنَ الأنظار بسرعة.

استلقى العريس على السرير ذي الفرش البيضاء المطرزة بالورد الأحمر والأصفر الفاقع ولــوَّح بيـده أن هلمي إلى الفـراش، فصرفت النظر أول الأمـر، فبهت واصفر وجهه وكأنـه يطلـب منهـا مطلـبا مستحيلا، ولكـن حماسـه لـم يفتـر، فقط نفخ نفخـة غيـظ قصيـرة، وهو يتجـرع لحظـات الانتظار والملـل.

ذهبت متباطئة إلى الفـراش، واستلقت على ظهرهـا، وعيناه تراقبانها حتى اتسعتا، وحدثتـه نفسـه بالهجـوم على هذا الجسـد الغض شبـه العـاري إلا مِـن ملابس النـوم الحمراء، وأحدَّ بصـره في دهشة وكأنـه لأول مـرة يـرى جسد أنثى وهو عارٍ ذو أرداف ثقيلـة، وهو لا يعـرف شيئا عن الحب والرومانسية، كل أمره أنـه يبحـث عـن جسـد ممتلىء ووجه مثير.

مـدَّت سليطـة اللسـان أذنيها تسترق السمـع خلف باب غرفـة العروسين، كانت خائفة جدا ووجلـة منذ أُغلِق الباب، ولـم يهـدأ لهـا بـال، وهي تتخيـل ماذا سيفعـل بهـا شريف إذا كانت العروس غير عذراء لا سامـح اللـه؟ فهي مَـن أتـت بهـا لتكـون زوجة لـه، وكان مِـن عـادة أهـل الـريف أن يخـرج العريـس حاملا قطعة قماش بيضاء عليها دم الشرف بعد أن يدخـل في عروسه، والويـل كـل الويـل للعروس التـي لا يخـرج منها دم تلـك الليلـة، فسيكون مصيـرها الموت المحقـق ، ويظلُّ العار يلاحقها وأهلها دهورا عديدة.

(نعم سيذبحني هـذا العمـلاق المجنـون قبل أن يذبحهـا.. أكاد أجزم أنه سيحرقنـي أمام فوزية وبناته ليشمتن بـي.. وقد يحبسني في غرفة الخادمة الطينية حتى تلدغني أفعى فأموت فيعلـق جثتـي في البستـان كمـا علَّق

الذئب الذي هجم على غنماته بعد أن اصطاده وأكل قلبه نيا.. لكنها لو كانت غير عذراء لما جاءت إلى هنا بقدميها.. أو لكانت اعترفت لي على أقل تقدير من باب الحيطة والحذر.. إنها عاقلة وبريئة.. وأنا مَن أتيت بها إلى هنا.. وعليَّ أن أتحمل حماقاتي وكيدي وغروري.. إما أن أعود مرفوعة الرأس إلى بيتي، وإما أن يبقى مفصولا عن جسدي معلقا هنا في زريبة الحيونات يترنح بين فضلات البقر)

ثم لعنت أحلام وزوجها أحمد، ولعنت زينب، ولعنت فوزية، ولعنت شجرة التوت، وعادت تسترق السمع وتلصق أذنيها بالباب وتسمع التأوهات وصرخات الألم، فاستبشرت خيرا بتلك الصرخات التي تعلن أنَّ العروس في الغالب عذراء.

خرج شريف منتشيا، يعلو جبهته الحماس والفخر على ما حققه بهذه السرعة من إنجاز عظيم يحسب له ألف حساب في القرية عند رجالها وشبابها، ورجع الدم يتدفق في عروق السليطة وهي تلاحظ الابتسامة العريضة التي تغمر وجه أخيها المفترس.

وهرعت إلى داخل الغرفة للتأكد بنفسها ولتقطع الشك باليقين وليطمئن قلبها، فوجدت العروس جالسة على سريرها حاملة قطعة القماش مخضبة بدم الشرف، وتعلوها شبه ابتسامة رغم ما بها، مع ضحكة صفراء.. قالت:

- هذا دليل طهارتي وعذريتي وشرف أهلي

فهمست سليطة اللسان:

- اشكري الله على أية حال.. ولتنعمي بحياة تحسدك عليها الكثيرات مِن نساء القرية لأنك تزوجت أغنى رجل هنا

وحـازت سليطة اللسان على جائزتها مِـن أخيها، الخلخـال الذهبي، وارتاحت أحلام مِن زينـب، وبقي لهـا البيـت تسـرح وتمـرح به وحدها، وقهرت السليطة فوزية، وأذلَّـت كبرياءها.

نـام بعمق بجانبها، وشخيـره يملأ الغـرفـة، وكأنـه لـم ينـم منـذ الحـرب العالميـة الأولـى، وهي يقظة تستمع إلى نقيـق الضفادع الـذي ملأ الأرجاء.

ولـم يجـر أي حديث ذي طعـم أو مـودة بينهـم تلك الليلـة، وهي هنا بفعل سليطة اللسان، التي لولاها لما كانت الآن تزفـر الآهـات وتشهق الحسرات في مخـدعٍ نتـنٍ، وكأنه زريبـة حيوانات، أو قـن دجـاج.

وأصبح الصبـاح، وتعـالت أصوات الديكـة التي تملأ القـرية، وفتحت ستائر النافذة الوحيدة التي تطل على البستان لترى ماذا يوجـد مِن عفـشٍ فـي حجـرتها، فرأت أرضيتهـا مفروشـة بحصيـرة مصنوعـة مِـن القصـبٍ يقـدر عمـرها بعشريـن سنـة حتى لـم يبق أي لـون لهـا.

وبـدا اليـوم هـادئا في صباحـه، فجالـت عيناها باحثـةً عـن العـريس، فلم تجـده، ثم عـاد ساعيا إليها بعـد أن اطمأنَّ على مواشيه وأبقاره التي حمل لها العلـف والمـاء منـذ الفجـر، وتاركا عروسه مِن أجـل غنمـاته وأبقاره، إذ أنـه لا يعـرف شيئـا عـن الرومانسية، كـل مـا كان يشغله أن يبحث عـن جسد ممتلىء وقـوام ممشوق وأرداف كبيرة ونهـود كبيرة بـارزة ووجه مثير، ولا غرابـة في منظره الـرث، فهو يعمل منـذ الفجـر إلى غيـاب الشمـس في الحقـل، وهمه الوحيـد إشبـاع بطنـه وفـرجـه.. يشرب على الفطـور ثلاثة كيلوات مِـن الحليب دفعـة واحـدة، مع تسع بيضات مسلوقـة وأربعة أرغفة من خبز الشعير الـذي يـزرعـه في أرضه، وهـذا كلـه قبـل وجبـة الفطـور.

جلسا يأكلان بصمت، وهي تتجرع الطعام، ولا تكاد تستسيغه لفرط الملح والسمن الحيواني الذي يطفو فوقه، إذ إنها لأول مرة تتذوقه أو بالأحرى لأول مرة تسمع عنه.

ولا يوجد أي مظاهر للفرح عليها، ولا يحظى بيتها الجديد بنعمة راحة البال والرضا التي كانت تعيشها ما يقارب الثلاثة عقود مِن عمرها، وذلك لكثرة ساكنيه وكثرة ضيوفه، وغرابة أمه العجوز التي لا تكف عن أن تطلب طلبات تعجيزية لكل مَن يمر مِن أمامها، والويل كل الويل لمن لا يجيب نداءها.

– عليكِ أن تعرفي واجباتك.. فاعتبارا مِن يوم غد سيكون عليكِ أن تبقي هنا في المنزل قرب أمي لتعتني بها.. فهي عجوز طاعنة في السن وعليكِ رعايتها كالأطفال.. وإلا ستصب عليك غضبها.. ولن ترحمني ألسنة الناس

فقالت غاضبة وهي تقف أمامه:

– أنا لستُ خادمة هنا.. أريد أن أعرف منكَ شيئا.. هل أنا زوجة لك أم جارية أم خادمة لأمك أم معمل للتفريخ أم جسم مثير تريد أن تقضي فيه شهوتك وكفى؟.. أريدك أن تجيبني على هذه الأسئلة التي دمرت تفكيري ومشاعري

وما أسرع ما انزلق هذا الرجل بالكلام السخيف والفظ وطول اللسان كأخته، وشيء مِن الشتم لها ولسليطة اللسان التي أتت بها إلى هنا، وقد كان جهوري الصوت محتفظا بعصبيته القبلية، منطلق اللسان

بقبيـح الأقـوال مع ذرات اللعـاب المتناثرة من فمه، كريـه الرائحة التي تتطايـر منه باستمرار.. قالت بحقـد:

- يبدو أنكَ لا تعرف شيئا سوى إصدار الأوامر

- وأنتِ لا تعرفين غير الشكوى والتذمر مِن كل شيء

- لم تجبني.. مَن أنا هنا؟

- أنتِ لا شيء

فحبست دموعها وقالت في نفسها: (يا لهـا مِـن خيبـاتٍ سأعيشها!.. خيبـة تتلـوهـا خيبـة)

***

الفصل الحادي عشر

ارتقت حياة علي الاجتماعية، وبدأ يتعرف على العوائل الراقية ورجال الأعمال العراقيين والأجانب والشخصيات المرموقة والمؤثرة في المجتمع، هذا ليستمد منهم العظمة والأبهة، ولم يعد يفكر في أخته وأخيه، وانشغل أكثر بخطيبته الجميلة التي صارت هي شاغله الأول.

أخذها ذات مساء إلى دار السينما بعد أن استأذن مِن أمها، وليختلي بها قليلا عن عيون الباقين، ودَّ لو أنه يطير بها فوق السحاب، ويحلق بعيدا في أجواء الفرح والسعادة، وإنها حقا جميلة، وجمالها لا تصفه كلمات، خرجت معه بثوب زهري قصير وخفيف، وعينين زرقاوين وشعر يتطاير مع الريح، حتى يكاد يلامس خصرها.

سارت تضم راحة يدها الناعمة براحة يده الغليظة بلهفة، وقلبها عامر بالحب ومفعم بالحيوية، وكانت أعين الجميع حولها تتفحصها، ففتح عينيه الواسعتين الكبيرتين، وراح يحملق بكل مَن ينظر إليها، وانتبهت لتصرفاته حيث هالها المشهد، فسألته بضحكة هادئة:

- ما بكَ تنظر لي ثم للمارة هكذا؟!

- لا أستطيع أن أقاوم لذة النظر اليكِ دون التقرب إليكِ أكثر وأكثر.. يا لوعة مهجتي ولبيد آهاتي!.. متى أختلي بكِ وحدنا وأتحرر مِن أغلال هؤلاء الحمقى المتطفلين؟

انفجرت ضاحكة مِن كلماته، ثم تمتمت:

- تعجبني هذه النار المشتعلة في صدرك

قال بشيء مِن الفخر:

- ارحمي قلبي يا أميرة قلبي.. حتى والله إني أرى عصافير السماء فوقنا اليوم مترنمة لوجودكِ معي في نشوة مطلقة

وحدقت ريتا به مليا وهو يتغزل بها، وعيناها تراقبانه بإمعان، وقد أمسكت عن الكلام.

- لا تبقي بلا حراك.. بلا كلام.. تكلمي

- سنصل إلى السينما ونجلس متجاورين .. فلا تكن مجنونا

- ألا تدرين أن أجواء السينما الهادئة الخافتة تؤدي إلى جنوني؟

- ولهذا فأنا خائفة مِن أن تفقد عقلك يا مجنون.. احترس.. سنكون في مكان عام.. ولسنا في غرفة النوم.. تذكر دائما أنكَ علي مهندس الشركة الهادىء الرزين العاقل

- إن الهدوء والرزانة هناك في الشركة.. أما هنا ومعكِ فلا عقل ولا تحفظ على أي شيء.. وجودك بجانبي يسلبني وقاري وعقلي

- أنتَ بارعٌ في الغزل يا حبيبي

- وأنتِ الأنثى الوحيدة التي علمتني الغزل.. وأعطتني الحب والحنان وأنا بهذا العمر.. أريد أن ألمس السماء بيدي.. لقد تعتَّق حبكِ في قلبي أيتها الباردة المشاعر

ودخلا السينما وخرجا دون أن يمسها درءا للفضائح، وقال لها ما إن صارا بالشارع:

- استعدي للمفاجأة التي أحضرتها لكِ

- هل جئتني بهدية؟

قالتها والفضول يتفجر في أعماقها كينبوع، فقال:

- انتظري قليلا حتى نصل

ووصلا إلى أحد محلات الصاغة، فاشترى لها قلادة ذهبية تطوق رقبتها المرمرية الناصعة البياض، فارتسمت ابتسامة مضيئة على وجهها الأبيض المحمر بحمرة الخجل وشكرته كثيرة، ثم عانقته بيديها وخرجا للشارع.

وهفَّت نسمةٌ من الهواء العليل طوقتهما معا في سعادة غامرة، ومرَّ الوقت سريعا في هذه الليلة الرائعة التي انتهت بأن ذكرت له بأنها تفكر في الهجرة إلى أمريكا، فأدخلته فجأة في دوامة من الأفكار غير المحببة لديه كالزوبعة التي عصفت بكيانه.

- دعي الحديث في مثل هذا الموضوع حاليا في هذه الأجواء الرومانسية الجميلة المحسوبة علينا.. لنترك الحديث في ذلك لما بعد الزواج

وأيدت كلامه بهزة مِن رأسها، ثم وجمت برهة، ثم استأنفت وعيناها تحلق في البعيد:

– لكن عليكَ أن تعدني بأننا سنهاجر في أقرب فرصة نحو المستقبل الذي ينتظرنا هناك في أرض الفرص.. أرض الإبداع والتقدم والحياة الرغيدة

أرادت أن تزرع فيه الأمل والتطلع للأفضل معها، وهو يمشي في الطريق بجانبها، ويتساءل في سره: (ماذا سأقول لأخي وأختي؟.. وكيف سأتركهما وحدهما بالعراق يصارعان الحروب المتكررة، وحياتها المتقلبة غير الآمنة؟

وفي الليل تقلَّب كثيرا على فراشه حتى انتصف الليل ولم يغمض له جفن في تلك الليلة، وهو يفكر بما دار مِن حديث بينهما، ويحاور نفسه ويسترجع الأحاديث السابقة: (إنها تملك لسانا عذبا قادرا على الإقناع وترديد الأحلام ويزيد الفتنة فتنة.. لكنها تسعى تكرارا بكل وسيلة كي تجعلنا نهاجر تاركين وطننا.. كانت تذكر ذلك لي ضمنا قبل ذلك.. ثم صارحتني الليلة.. وإنها لتنتظر موافقتي بفارغ الصبر.. كيف سأقاوم هذه الرغبة الشديدة لديها؟)

لبث برهة في صمتٍ شامل، وتراءت لعينيه صورتهما يعملان في أمريكا ويملكان قصرا كبيرا فيه الحدائق الغناء والخدم والسيارات، ويملكان شركة كبيرة للمقاولات، وأبناؤهم يدرسون في أرقى جامعات العالم بعيدا عن الحروب والكوارث ورائحة الموت والدخان والنفاق

والكذب والخداع والحرمان التي عاشها على امتداد حياته، ولا يريد أن تتكرر مأساتها لأولاده.

وقال علي في نفسه: (صارت الدنيا الآن حولنا ما هي إلا حربٌ ونساءٌ.. حربٌ تأسر الشعوبَ بداخلها بكلِّ مخاطرها وآثارها الأليمة مِن أجل صراعاتٍ لعينةٍ.. ونساءٌ تأسرُ الرجالَ شغفا بهن وخوفا عليهن.. فكيف نوفق بين هذه وتلك؟.. إنَّ تفكير ريتا خوري تفكيرٌ صائبٌ.. هناك بالغرب وأمريكا المستقبل الآمن لأبنائنا الذين يجب أن يعيشوا حياةً أخرى غير ما عشناها حتى لا نكون لهم عاقين.. لذلك فإنه يتحتَّمُ عليَّ أن أستفيدَ مِن دروسِ الماضي التعيسة.. إنَّ أحمد وزينب تزوجا.. وأظنهما ارتضيا أن يعيشا هنا.. فليعيشا هنا.. لكن ما الذنب إذن عليَّ في أن أسعى الآن لنفسي فأطهِّرها مِن الرواسب القديمة البالية؟!.. ولأنَّ الوطن الحقيقي للإنسان هي الأرضُ التي ينعمُ فيها بالأمنِ والحرية.. فيجب أن أغادر هذا المكانَ الذي صار لا شيء سوى حربٍ ونساءٍ)

وأشرقت الشمس، وصوت ريتا يلاحقه مِن حين إلى آخر في نوبةٍ انعزال بعيدا عن عيون المتطفلين وسط هدوء خادع، وخيل له أنَّ طيفها يعبر مِن أمامه، وكأنها تسأله بشغف: (متى نهاجر يا حبيبي؟.. متى؟.. لقد أرقتني أحلام المتفائلين أمثالي ومزقت حجرة قلبي)

وانتبه لواقعه على طرقات الباب لثلاثِ مراتٍ خفيفة.. فتحه وإذا بسائق الشركة قد بعثه المدير، بعد أن أصابته نوبة قلق لتأخر علي على موعد الدوام الرسمي لذلك اليوم الجديد، وعلي يحبس أنفاسه ليقرر مصيره مع

حبيبتـه ريـتا بقرارين: الأول تحديـد يـوم الزواج، والثاني الموافقة المبدئية على الهجرة إلى أميركا.

وكانت أم ريتـا لا يزال بها بقايا يسيرة مِن بعض التوجس والرهبـة ممـا يخبئه هذا الـرجـل المسلـم مِن مفاجآت، لكن ابنتها ريتا كانت تبدد مخاوفها كل يوم بما تقصه عن علي مِن جيد الأخلاق والمبادىء، وعنها فقد كانت لا تكف عن صلواتها داعية وراجية: (الرحمـة والعفـو يا أبانا الـذي في السماوات.. ارحمنـي واعـف عني.. لـكَ المجـد يا ربـي.. تعلـم أنني وافقـت على زواج ريتـا ابنتـي الـوحيدة مِن رجـل غير مسيحي إشفاقا مني على قلـب ابنتي وطـاعـة مني لحبهـا لخطيبهـا.. سامحنـي أيها الرب.. ليتمجد اسمك بين النـاس في الأرض مثلما هو مجيـد في السمـاوات)

ولمـا أصبح الصباح في اليوم التالي، وارتفعت شمـس النهـار إلى كبـد السمـاء، واشتدت حرارة الجـو اللاهبـة التي لا تعـرف الرحمـة، وأم ريتا تحلق بنظرهـا فـي سمـاء الغـرفـة، علت وجههـا ابتسـامة، ونقلـت أقـدامها إلى حيث يجلس زوجهـا الطيب تسأله بخضوع وانكسـار:

- أعطنـي رأيـكَ الصريح بـزواج ريتـا

فقال وهو يتثـاءب:

- القنـاعـة والرضا بالقـدر علاج ناجـع يا زوجتـي العـزيـزة

- معك حق.. معك حق

كان حلمهـا لابنتها أن يتـزوجهـا رجل مسيحي غنـي، يملك القصـور والفلـل والعمارات والمزارع، ولكن ليس كل ما يتمنـاه المرء يدركـه، وبهجـة

الحيـاة أو تعاستها لن تـدوما إلى ما لا نهـايـة، وهنـاك جـروحٌ لا تنـدمـل أبدا مع الطمع، وجروحٌ كأنها ليست بجروح مِن فرط الرضا.

جلست تدير كلَّ الأمور في رأسها، وقد راح زوجها الطيب يرمقهـا بنظـرة قاسية مستغربة حينا، وفي حين آخر حانية ومشفقة عليها مما هي فيه من تخبط، وكان متضامنا مع ريتـا وعلـي، في الوقت الذي لا تزال زوجته حائرة، لأنَّ مشاريعها وخططهـا المستقبلية يبدو أنها ذهبت أدراج الـريـاح، ولم يبقَ إلا نفسهـا لتحـاورهـا، ولو حاورتهـا بمنطق العقل وصفاء القلب إلى جانب رضا الحمدِ لخرجت بنتيجـة الموافقـة الأولية والنهائيـة على هذا الزواج.

وهبط المسـاء سـريعـا، وعـادت ريتـا مِـن العمـل يغمرها الإرهاق، ولكـن الفـرحة والسعـادة تغمـرانهـا أكثر لقضاء معظم يومها مع علي، وقـد تغيـر لـون وجههـا إلى الوردي الفاتـح، وكانت مستسلمة لنداء سلطـان النـوم بشـدة، ووالـدهـا ينظـر لهـا بعيـون قلبـه وروحـه ليخبرها بما سيسرها أكثر، لكنها تريد غفـوة قليلـة، فنامت ، ثم ما لبثت أن أفاقت، فما لبـث هو أن قبلهـا مِـن جبينهـا بينما هي تصحو للبـوح لهـا بشيء مفـرح، فقـال:

– إنهـا البشرى يا ابنتي الغاليـة.. لقـد اقتنعت أمـكِ أخيرا اقتناعا كاملا بالزواج مِن علي.. لن تتراجع بعد ذلك ولن تحتار

فقالت بسعادة كبيرة:

– هذا أجمل خبر.. وفي كل نهايـة لا نملـك إلا أن نتقبـل أمـر الـرب

وفي سكـون الليـل العميـق شـديـد الظـلام، كان الهـواء عليلا والقمـر باسمـا، لـم تستطع أن تأوي إلى النـوم، فتوجهت إلى الهاتف لتبشر علي بموافقـة أمها النهائية التي لا رجعة عنها، حتى قبل أن تتكلم مع أمها لفرط الغبطـة التي حلت عليها في هـذا المساء.

وراحـت يـداهـا تهـتزان بشكـل سريـع، ومـرَّت لحظـات وهي تفكر بطريقة مميزة تفاجىء بها حبيبها عليا لتمرح معـه قليلا بهذا الخبر التي سيـهز كيـانـه.. أرادت أن تصدمه أولا وتحزنه ثم تفرحه، لكنها عادت ففكرت وتراجعت خوفا مِن أن تحيل ليلتها السعيدة إلى ليلـة سوداء، وبدأت تشفـق عليـه، نعـم إنهـا بحور الحب والحنين، توقف الكلمات في الحناجر ويعجز اللسان عن النطق أحيانا خوفا من دفع الأذى إلى روح الحبيب.. رفعتْ سماعـة الهاتـف واتصلـت:

- عنـدي لكَ ما يسرك

- ماذا؟.. تكلمي سريعا

- وافق قائـد القـوات على زواجنا موافقة أكيدة

كان ناهضا مِن نومه ليرد على الهاتف متثائبا، فظل جـامـدا في مكـانـه عنـد سمـاعـه الخبـر للحظـات طويلـة، ثم استعـاد وعيـه الكامل الـذي كـاد أن يفقـده، وقال بعـد هنيهة مِـن الصمت:

- الكـذب دميـم يا فتـاة.. ومـؤلـم كألـم الـولادة.. ارحمي قلبي

- أو تـرانـي أمـزح معك في هـزيـع الليـل أيها الرجل؟!

- ولكـن متـى؟.. وكيف؟.. وأيـن؟

- المهم أنها وافقت.. والحلـم الهـارب سيتحقـق أخيرا يا حبيبي.. وما عليكَ الآن إلا أن تحقق حلـم طفولتي وشبابـي وكل حياتي

- إلام تلمحيـن يا حبيبتي؟

فطرقـت مِـن جـديـد موضوع الهجـرة إلى أمريكا، فقال:

- نامي يا حبيبتي والصبـاح ربـاح مثلمـا يقولـون.. فأمامـك يـوم شـاق من العمل

نامـت بعد بـزوغ الضياء الأول مِن الفجـر، وصحت على صـوت أمها ناهضة مِن فراشهـا ببدن مثقـل، فشكرتها، ولم تجـد حـرجـا مِن البـوح لهـا عـمـا يكـن في صدرهـا من أسرار ومشاعـر جياشة لحبيبهـا الـذي أسـر قلبها.

ووصلت إلى مقـر الشركة في الساعة التاسعـة صباح يـوم الأحد، وجال بصرها في كلِّ الأروقـة باحثـة عن علي، ثم ذهبت إلى مكتبه ولم تجـده، وأخيرا وجدتـه في الكافتريـا يحتسي كوبـا مِـن الشاي السيلاني الفاخـر، وسحبته برفـق مِـن يـده إلى داخـل المكتب، وأشرق وجههـا ببسمـة فاتنـة، ومالـت بجسمهـا كلـه نحـوه، فقال لهـا بـود:

- نحـن في الشركـة.. ولو كنا في مكـان خالٍ لاغتنمـت هـذه الفرصة السانحـة

وانتابتـه لهفـة الشهـوة تجاهها وهي ترتدي ثوبا أسود الـلون شفافا مكشـوف الصـدر والـذراعيـن، وتتمايـل فـي وقفتها بجانبه.

– لقـد باركت أمي زواجنـا يا علي أفندي ولـم يبق لك عـذر....

قاطعـها:

– أي عذر؟

– يا ربي!.. لمَ تنسى موضوع الهجرة هكذا سريعا؟!.. يا علي يأخـذ مني الشـوق والتـوقَ إلى الهجـرة مِن العـراق مأخـذا كبيرا.. وأنتَ منه بين بين.. ويبـدو لـي اليـوم أفضـل مِـن الغـد وأنتَ لا تبالـي بمطلبـي الوحيـد

نظـر في عينيهـا، ثم تفحَّص جسـدهـا بنظراتـه الـزائغـة مع لحظـاتِ صمـتٍ بطيئـةٍ تخيـم على المكـان، وتخيـم عليها معها سحـابـة مِن الخـوف، ومـرَّ الـوقـت مرورا كريها، وبخاطـرهـا تدور أوهـامٌ وهواجسُ خطيرةٌ وغريبـةٌ وكثيـرةٌ وهي تنتظر أولى كلماته بعد هذا الصمت السخيف.

كان يحدث نفسه حديثا غريبا: (هل أرفض؟.. ولكنـي لا أستطيـع مقـاومة فخـذيهـا الأبيضين النـاعمـين المشعين أنوثة ونعـومـة.. إذن فلأهـاجـر معـها كي أنام بحضنهـا الدافىء طيلـة عمري.. ولكن هـل بقي مِن عمـري شيء وقـد تجاوزت الأربعين حولا في الحروب والفقر؟.. أليس مِـن حقي أن أنعـم بهـذا الجمال الربانـي بقيـة عمـري إن كـان في العمـر بقيـة؟.. ما هذا؟!.. إني ما زلت صغيرا وأمامي سنوات مِن السعادة معها.. فلِمَ لا أحقـق حلمهـا الكبير بالهجـرة؟

– سأحزم أمري الليلـة يا ريتا.. وسأقرر مصير مستقبلنا.. وأحـدد موعـد الزواج مـع أهلك

– حسنا يا زوجي المستقبلي.. سأنتظرك على العشاء.. ستأكل هذه الليلة مِن صنع يدي.. وسوف أجعلكَ أسعد رجل في العـالـم حين تطأ أقـدامنا أرض أمريكا.. وهناك ستتعرف أكثر يا حبيبي على كثير مِن الشخصيات ورجـال الأعمـال

– لا أريـد أن أعـرف بَشريا أو بَشَريةً سواكِ في هـذا الكوكب

– وأنا مثلكَ.. لكن حياة الإنسان لكي ترقى لا بد له مِن معرفة بعض البشر

– مِن أجلكِ أفعل كلَّ شيء

فصمتت قليلا ثم قالت في أسى:

– هل تظنُّ أني لا أحب العراق يا علي.. ولذلك أريد الهجرة؟.. والله إني كمسيحية أعشق تراب هذا البلد المجيد كما يعشقه المسلم سنيا وشيعيا وكرديا.. وكما يعشقه الأيزيدي وغيره.. ولكن يا حبيبي انظر حولك إلى الدمار والخراب والقتلى الذين خلفتهم الحرب اللعينة.. انظر إلى النساء اللاتي ترملت والأطفال البؤساء واليتامى.. وإلى الجسور التي هُدِمَت وها نحن الآن نعيد تشييدها.. يا علي إنَّ ماضي هذا البلد ماض عريق يجلب الفخر لنا جميعا.. ولكنَّ كثيرا مِن حمق الحاضر قد أهال الترابَ على جوهره الثمين.. والمستقبل غامض مجهول يا علي.. وما زلنا لا ندري مصيرنا القادم

– لكنَّ الحرب انتهت يا ريتا.. وسنكون بخير

– يا علي لا تخدع نفسك.. أنتَ أكثر دراية مني بهذا الأمر.. تعلم أنَّ الحرب في بلادنا لا تنتهي إلا لتبدأ

– ولو هاجرنا نحن وهاجر كلُّ عراقي.. فمن يبني هذا الوطن؟..مَن يحفظه؟.. وهل سنظل عمرنا في الهجرة والغربة بلا وطن؟!

– وطنكَ هو ما تشعر فيه بالحرية والأمن يا علي

كانت كلمات أليمة قالتها، وللحقِّ فقد وجدها علي على حق في كل كلمة قالتها، وصار يردد في نفسه طوال الليل متقلبا مع فراشه وهمومه وحيرته: (وطنكَ هو ما تشعر فيه بالحرية والأمن يا علي)

وفي اليوم التالي عند الباب استقبله أبوها الطيب صبوح الوجه، وداعبه بمودة قائلا:

– تفضل ياصهري

ثم ظهرت ريتا تتطلع إليهما مبهورة فرحة بحسن العلاقة بينهما، وبلطف بالغ تدخلت أمها في الحوار، وهزت رأسها مستسلمة لأوامر ريتا ومرحبة بالعريس:

– بارك الرب زواجكما.. أراكِ بمشيئة الرب تلبسين ثوب الزفاف الأبيض الملائكي يا عزيزتي ريتا

هكذا بكلمات مقتضبة دون بوح أكثر مِن ذلك مرقت كلماتها إلى مسامع علي، وقد بدت له هذه الليلة مِن أحلى الليالي رغم أنه كان منهكا مِن عدم النوم في ليلة الأمس مع تعب النهار وتقلب طقس الجو، والحياة المكبوتة التي عاشها بماضيه في الحروب.

وخلا المكان له ولخطيبته في الصالة، فقد توجَّه الأبوان إلى الداخل

بعد أن وضعا لهما طعام العشاء، وكان ضوء القمر يفرش الدنيا بالخارج، وبالداخل ينير حياة علي وريتا، ويثير الغرائز والشهوات المكبوتة، فهي تضع بيديها الطعام بفمه، وتداعبه بهمسات ولمسات، وهو جائعٌ لكل شيء وليس للطعام فقط، فأكلا مِن الطعام وشبعا، ثم رفعت المائدة، فأصرت شكرا وبرا بوالديها على أن تغسل الصحون في المطبخ وحدها لتحمل العبء في تلك الليلة عنهما، فتبعها علي بهدوء يمشي على أطراف أصابعه، والتصق بها مِن الخلف، واضعا رأسه بين كتفيها ليلامس خلف رقبتها بشفتيه، ويحيط خصرها النحيل بيديه كالصقر حين يفترس الحمامة، وهمس لها مندفعا، وعيناه على صدرها الكبير نصف العاري:

– لم أعد أحتمل هذا الجمال أكثر مِن ذلك.. لنتزوج الآن؟.. ماذا فعلتِ بي؟!.. لم أعد أحتمل.. ارحميني

– ما رأيكَ أن نتزوج الخميس المقبل

– موافقة.. ومتى نسافر؟

– أين؟

– أمريكا

– عندما تريدين

– أحبكَ

***

الفصل الثاني عشر

نصف ساعة عذراء مِن الزمن أطاحت بحياة زينب إلى الأبد، كلُّ خطيئتها فيها أنها أدخلت حبيبها موظف الكهرباء عثمان إلى بيتهم.. دخل وهي عذراء، وخرج وهي عذراء إلا مِن بعض الملامسات التي بلا شك دنَّستْ الطهارة الكاملة.

وجعلتها تلك الساعة تحيا أياما قاسية مؤلمة، لها جمالٌ حزين مندثر وسنيدثر أكثر، فعاشت تشفق على ما آل إليه حالها القديم والجديد، وتعود بها الذاكرة تكرارا نحو منزلهم الذي تربت فيه ونعمت بالسكينة في أرجائه، حتى الحياة صارت بلا حياة، وهل يذوق طعم المرارة إلا مَن تجرَّعها؟.. لا أحد يدرك ما هي فيه مِن شعور ويأس، لأنهم لم يحترقوا بما احترقت، ولا يدرون ما داؤها ودواؤها، ربما انتهى قلبها بظاهره وباطنه، ربما تعيش بدونه في شيء أشبه بالمعجزات والخوارق.

وهي تحادث نفسها ساخرة أحيانا وساخطة أحيانا أخرى، وتشهق مِن خلال دموعها، وتحاول مرارا أن تحبس دمعتها، لكنها تؤثر الصمت

وحتى الهمس، غير آبهة لطعنات الألم، فتصحو كل صباح تترقب الطريق الترابي القادم مِن المدينة إلى أن تغيب الشمس، عسى أن يتذكرها أحدٌ مِن أهلها فيأتي لزيارتها.

وصارت تقول لنفسها تكرارا: (لعلي بُتِرت مِن ذاكرتهم.. أو أكاد أوقن.. فقد مرَّ قرابة الشهر على وجودي هنا في هذه القطعة الريفية مِن الأرض المقذوفة خارج التاريخ.. ولم يزرني أحد ممن يسمون أهلي.. أين أختي؟!.. لم أرها بجانبي أبدا.. ليس لها إلا زوجها ليلا ونهارا.. وأين أخي أحمد؟!.. ليس له إلا أحلام ليلا ونهارا.. وأين أخي علي؟!.. ليس له إلا ريتا ليلا ونهارا.. كان الرجال في بلادي منشغلين بالحروب.. فلما انتهت الحروب انشغل أخواي عني بالنساء.. حربٌ ثم نساءٌ وفقط)

وقالت: (وكيف هي السعادة في هذه القرية النائية الجافة مِن الحياة كجفاف قلوب سكانها التعساء؟!.. وكيف تكون حياة أشخاص ينامون قبل صلاة العشاء ويستيقظون مبكرين عند أذان الفجر؟!.. لا قراءة ولا فن ولا شيء غير أعمال زراعة وري وتربية دواجن وأبقار.. إني أرى نفسي سجينة في أحد المعتقلات النازية التي قرأت عنها في كتب الروايات.. هنا آلات تعمل فقط خالية مِن الأحاسيس والمشاعر.. هنا أقسى مِن الحرب)

وقد غرقت في الحياة الخشنة الغليظة في القرية مثل ساكنيها، وصارت وكأنها نخلة غرست هنا في هذه الأرض العطشى للحياة، وهي إن سُقيت فإنما تُسقَى بماءِ بئرٍ عَكِر، يميتها كالحسرات، ويحولها إلى أشلاء مبعثرة.

كانت عندما تذهب إلى الحقل كنوع مِن التغيير، يلقاها الهواء العذب، فيضرب جسمها ويجلو ملامحها الجميلة المثيرة، فتجلب نظر شريف مِن بعيد بينما يكون وسط بستان الزيتون الصغير، فتلهب مشاعره وغرائزه، فما تلبث غير أن تجد نفسها مستسلمة بين يديه في الهواء الطلق، حيث المكان الخالي مِن البشر، والمزدحم بالعصافير التي تزقزق على الأغصان زقيقا منكرا رافضا أن يضاجع ذاك الجسم الضخم كالفيل تلك العصفورة الوديعة الرقيقة.

وكان الفيل الضخم دائما ينابزها بالألقاب التي لا تطيقها، ولا يناديها باسمها: (ردي يا بهيمة.. تعالي ياخنزيرة.. غبية أنتِ كالحمارة)

كان طويل اللسان والقامة، لكنه قصير النظر والذوق، ولم يتكلم بحديث عذب طوال حياته، بخيلٌ لا يعرف للوفاء معنى، قضى نصف حياته مع غنماته بحظيرة الحيوان، والنصف الآخرفي حقول القمح والذرة.

وكانت تسأل نفسها كثيرا: (ماذا جنيتُ أنا حتى تركوني لأتزوج مِن هذا الرجل القذر الدميم؟).. لم يجرِ على لسانه ذكرُ محمدةٍ واحدة لي.. أو كلمة شكر.. كان همه الوحيد لَذة المعاشرة.. وأن أنجب له الولد.. فمن أنا له؟!

أما طعام هذه العائلة الكبيرة وهي بينهم، فكان في الغالب شيئا غير متغير لا تطيقه، فعلى الفطور الخبز وجبن الماعز، وعلى الغداء تذبح فوزية بنفسها دجاجة واحدة مِن القن الموجود داخل الدار مع خبز

الشعير الأسمر غير المنخول، وأربعة صحون بطاطا على العشاء، هكذا مِن دون زيادة، ولا يدخل لحم الضأن في بطونهم إلا حين يأتيهم ضيوف مِن خارج القرية لزيارتهم، لكن يبقى أنه كان يستثني نفسه من بينهم بطعامٍ خاص يشبه جسمه جسم الفيل.

وبمرور الوقت أخذت تتأقلم رويدا رويدا مع الحياة القروية، ورغم ما جرى لها فإن صفَّ لآلئها ما زال يمضغ الهيل والقرنفل كلَّ صباح ليعطر الشفاه الوردية الناعسة العطشى، ولكن الأمل المجروح لا يمكن أن يجف نزيفه بسهولة.

وبعد التاسعة مِن كل ليلة يستثني نفسه مِن النوم مبكرا، فيذهب للسمر عند أحد أبناء عمومته، ولا ينفض المجلس إلا بعد منتصف الليل، ثم يعود فيجدها نائمة، فيوقظها ليعبث بها، وهكذا كل يوم وليلة.

وأشرقت الشمسُ بصباح بهي علي السعيد والمحزون على امتداد الصاحين مِن نومهم، وصادف ذلك اليوم معها دورها في رعاية العجوز المقعدة، فأخذت طعام الفطور لها باعتبارها قد دخلت في جدول الواجبات، واجبات رعاية وإطعام العجوز، وتنظيف أثاثها وفراشها وغسل ملابسها وإعداد طعام لها يختلف عن طعامهم.

دخلت وخلعت حذاءها، وسلَّمت على العجوز، وهي يشوبها الخوف والحذر قليلا.. ابتسمت العجوز مرحبة بالعروس.. قالت بفرح:

- اجلسي هنا يابنتي قربي.. إن شاء الله تتهنين بالزواج مِن شريف.. إنه طيب ولكنه عصبي وخشن الطباع نوعا ما لأنه لم ينجب

الـولـد مِن فـوزيـة رغم كل هذه السنوات الطويلة معها.. وأرجو أن تكوني أنتِ أم الـولـد.

شعرت بالامتعاض مِن كلامها، وشعرت بالخوف أكثر مِن فوزية وبناتهـا، وتخيلت ماذا لو نشبت حـرب بينها وبين فـوزيـة وبنـاتها، وحرب النساء تفوق الحرب الحقيقية في آثارها.

ومع تتابع الكلام تولَّد لديهـا إحساسٌ جميلٌ بأنها تـرى وجها مألوفـا، وكأنها جلست ها هنا مِن قبل مع هـذه العجـوز الطاعنة في السن، وإنَّ رابطا يربطها بتلـك القسمات الموغلـة في العمـر، وعطر القرنفـل يعبق بالمكـان معتـق بطعـم الزبيب ونبـات السعـد البري الأسـود الفاحـم، إنه كوجه أمها ملائكـي بريء خالٍ مِن الحقـد والكـره والضغينـة، ولهـا نفس دولاب أمها الخشبي، وحضنها يسع العالم كله كما كانت المرحومة، ودائما هي مشغولة بالصلاة والطاعـات، تقضي أغلب أيامها صائمة وقليلة الكلام، فإذا تكلمت تكلمت بحكمةٍ وهمس، هادئة الصوت والحركات.. فهل قضى القدر أن تبدأ شطر حياتها جاثية عن قدمي عجوز تخدمها هي أمها، وتقضي الشطر الثاني جاثية عند قدمي عجوز أخرى هي أم زوجها؟!.. إن كان كذلك، فلا بأس بها مِن حياة تقربها إلى الجنة.

صارت الشمس متعامدة، وهي ما زالت جالسة مع العجوز، واستراحت عندها مِن لفحـات الهواء الساخـن عند شريف، وأسندت العجوز ظهرهـا إلى الحائط.

- ما الذي يحزنكِ يا ابنتي؟.. أراكِ ممتعضة مِن قريتنا وحياتنا.. فيم تفكرين؟

- لا شيء يا أمي.. فقط أفكر في الدواب

- أية دواب؟

- دواب الأمس أرهقتني

فقد كان عليها في الليلـة الماضية عشاء الدواب الكثيرة التي تملأ الحظيرة، فأخذت أكياس الشعير مع أكياس الملح وكانت ثقيلة جدا، ثم أخذت عشاء الحمار إلى الحظيرة الثانية، وكانت بعيدة قليلا، مما أرهقها كثيرا.

وأصلحتْ العجوز غطاء رأسها المزركش وهي تتكلم:

- عليكِ بطاعة زوجكِ يا ابنتي.. هنا الكل طائع له.. تعوَّد أن يجـد في بيتـه الطاعـة والـولاء المطلق مِن الجميع.. حتى الحيوانات هنا تطيعه

كانت تتكلم بنبرة تمتـزج فيها السخرية بالأسى بالحكمة:

- وأنا سأكون بجانبكِ دائما.. لا تقلقي.. مع الوقت ستحبيننا وتتعودين علينا

شعرت بالزهو والراحة وهي برفقة العجوز وقد اصطفت لجانبها، وذاك لأنَّ هيئتها تحمل وقـار كبار السن وطيبة العجائز والشبه الكبير مع والدتهـا، وهي تتمعن في ملامحها البهية كملامح أمها وصفاء عيونها، وفي وجهها الأبيض الذي تعلوه حمرة خفيفة يتجلى صفاءٌ بطعـم السنين التي عاشتها، فيبدو وكأنه وجهُ ملاكٍ سماوي نزل إلى الأرض، فكـاد لذلك يغلبهـا البكـاء دون سبب، حتى خايلها النعـاس، وأخذتها غفـوة، ثم نهضت سعيدة، فقد كان كلام العجوز معها للمرة الأولى مريحا مؤنسا، أخرجها مِن لوعة القلق قليلا.

وصارت لها عادة يومية، ما إن تنهض مِن نومها حتى تذهب مسرعة نحو دار العجوز، وكأنها تطلب البركة منها أو لتعوض شيئا أو أشياء فُقِدت منها، ولتقوم ببعض الواجبات المنزلية لها، كتنظيف الغرفة وتنضيد الفراش، والذي يشق على العجوز تنضيده، ثم تخرج إلى الحظيرة لتتسلى بتربية صغار الماعز لتهرب مِن جحيم عذاب التفكير في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فتنشغل الساعات ليرتاح عقلها مِن التفكير، ولتخرج مِن زنزانة حياتها الروتينية قليلا.

ومع تتابع أيامها بالقرية بدأت تنتبه لاتساع المساحات الخضراء المجاورة لمنزل شريف.. أجل لا يوجد كهرباء، لكنَّ المكان جميل، والبيت أشبهُ بقصر صغير يقع على ارتفاع تلة بمقدار طابقين، فيه ثماني غرف بالإضافة إلى المطبخ الكبير الواسع، وخارج القصر بمسافة ليست قليلة هناك حجرةٌ كالصندوق المربع مبنية بالطين ومسقفة بجذوع الأشجار، يقال إنها كانت لخادمة تعمل عندهم لدغتها أفعى وماتت في الحال مسلوبة الروح في ثوانٍ، ولاذ الجميع بعدها بالصمت والكتمان بأمرٍ واحدٍ مِن شريف، لذلك فقد علمت مِن العجوز أنَّ الواقعة مرت وكأنها لم تكن، ولا أحد يعرف للخادمة أهلا أو معارفَ.

وينمو قرب هذه الحجرة الطينية نباتُ الصبار ذو الأشواك، وبجوارها كوخ الكلاب التي تحميهم مِن كل عدو، وتصحبها حين تسرح بالأغنام صباحا، وتعود بها في المساء.

أجل، فقد راق لها بعد ذلك أن ترعى الغنم وحيدة في ضوء النهار الذي يغمر الآفاق، وتحت أشعة الشمس الساطعة، ترتاح مع ذلك كثيرا

بالانعزال عنهم وعن ضوضائهم، ولكن الشمس تصهر جسدها، فتعود برونزية اللون.

وصارت أوقاتها بمعرفة العجوز ومحبتها لها هانئة وطيبة، وانزاحت عنها الهموم نوعا ما، إلا مِن فوزية، فصارت شغلها الشاغل يوما بعد يوم، وفوزية سريعة الغضب، وفوضوية، سمراء البشرة منحنية الظهروكأنها حدباء، ذات عيون كأنها ثقوب صغيرة سوداء، رشيقة الجسم، مائلة إلى النحول، حواجبها مقوسة، متوقدة الذكاء والمكر والدهاء.

واكتشفتْ شيئا خطيرا، ألا وهو العداء الذي تضمره فوزية وبناتها لها، وهذا العداء الذي لم تدرِ له سببا واحدا قد ارتكبته عمدا، كنفق مظلم بدأته بلا نهاية له، إنها ذلك النوع المخيف مِن النساء لكل مِن يقع عينه عليها.. صارت تلاحق زينب في كل مكان، وتتنصت عليها في كل أمر، حتى عندما يكون شريف نائما معها في غرفتهما، وأحيانا ترسل بناتها للتجسس واستراق بعض الكلمات، إنها أكثر مِن مجرد حاقدة أو شاذة الطباع.

وأما عن الحمار، فقد كان يسعد وينهق وينتشي كلما جاءت زينب له بالعلف، أو بدون العلف، إنه لمجرد رؤيتها يضرب الأرض ضربا، ويمتد عضوه الذكري لنصف متر، ويحكُّ جسمه بالأعمدة التي تحمل سقف الحظيرة، حتى ليكاد يوقعها، وفي البداية كانت تظنه غبيا، ثم صارت تنظر لعضوه وتردد: (هل وصل الأمر لهذه الدرجة؟!.. فعلا أنا الغبية وليس الحمار)

وتحوَّلتْ فتاة المدينة الأنيقة المتعلمة إلى فلاحة تزرع القمح والذرة، وترعى الغنم، وتحلب الماعز، وتصنع الجبن، وتطحن الشعير وتخبز فجرا

لتطعم رجلها وبناته وأمه، وتداوي جراح الحمار الثائر، ولا أحد يداوي جراح قلبها النازف، وهي غافلة عما كان الزمان يخبىء لها، وصارت تقضي بعض أوقاتها مع صديقها الحمـار، فتتكلم معه، وتسأله، وتظنُّ أنه يجيبها، وتوده ويودها، وخُيِّل لها يوما أنَّ الحمار يقول لها عندما أطالت النظر له: (أنتِ ضعيفةٌ سلبيةٌ كثيرةُ الأحلام كثيرة الأحزان كثيرة التذمر خائرة الصبر في كل شيء إلا أن تتركي نفسك للحزن.. جبانة تهربين مِن المواجهات.. لا تحبين الدفاع عن نفسك أبدا.. إنما يروق لكِ أن تعيشي دور الضحية المستضعفة دائما.. وتعشقين فقط البكاء وإلقاء اللوم على الآخرين والأقدار.. لذلك تركتِ نفسك لمهبات الرياح ترميكِ بأي مكان حتى وصلتِ إلى هنا أمام قدمي حمار)

وذات صباح رآها شريف عند البئر وحدها، والهدوء يعم المكان الخالي مِن جميع المخلوقَات، إلا مِن الحمار، وقد وشت نظرته بالشهوة المفرطة، فلم يتمالك نفسه الشرهة، وداهمها كالأسد المفترس، وخلع عنها ثوبها الأحمر المطرز بحبات الكريستال الملونة، ليكشف جسدها الأبيض الناعم، ذلك الكنز الدفين، الذي حصل عليه بفضل أخته، وكان الحمار ينظر إليها بعين الشفقة ويسمع تأوهاتها، لكنه لم يفعل شيئا، كان بائسا، خائفا هو الآخر على نفسه مِن سوط شريف، لكنه بدا وكأنه يقول لها: (هل رأيتِ نتيجة استسلامك لمهباتِ الرياح؟!)

واستسلمتْ له ولرائحة عرقه المتعفرة في جسده، حتى بدا وكأنه بركانٌ يرمي بحممه المنصهرة المتناثرة على جسدها الغض، وأغمضت عينيها

برقةٍ وضعف لا مثيل لهما، وشفتاها مرتجفة تبحثان عن شفتين تستحقان أن تسحقهما بشفتيها، لكنهما بالطبع لن يكونا شفتي هذا الضخم صاحب الرائحة العفنة آكل البصل ليل نهار.

وعبث الرجل كثيرا بثمار جسدها الرقيق، فكان كالمارد العملاق الذي ينام فوق حمامة بيضاء ناعمة، وبعد لحظات قليلة نهض عنها قاطعا بعض أوراق الشجر ليمسح بها ما بقي بعضوه مِن مخلفاته الذكرية، وتركها بين أغصان الذرة الصفراء دون كلمة، تنقل عينيها واجمة ما بين السماء الزرقاء البعيدة، والحمار الذي ذهل عنه صاحبه تماما، وهي مستلقية على ظهرها مرتجفة الجسم، مضطربة القلب في صمت عميق طويل، وقد تركت نفسها عارية تحت شجيرات الذرة، ليأخذ الهواء حظه مِن جسدها، ونظرات الحمار لها قد صارت نظراتٍ منتشية، فهو ذكرٌ في النهاية، ولا يستطيع ذكرٌ أن يتحمل البقاء قرب مثل هذا الجسد ساكنا.

وانخرطتْ في الاعتياد على هذه الحياة القروية الخشنة يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وشهرا بعد شهر، حتى صارت تلبس ملابسهم، وصار وجهها الصبوح مكتويا بنار الشمس الوهاجة كوجوههم، واقتربت لهجتها مِن لهجاتهم.

وبالغت العجوز في التودد لها، بل والتردد عليها، مما أغاظ فوزية وبناتها، وتولد لهن شعور مِن وهم وظن سيء بأنَّ زينب تعمدت جذب العجوز إلى جانبها لتكون محامية الدفَّاع عنها في كل مجلس وكل مناسبة، والحقيقة أنَّ العجوز شغفت بزينب وبأخلاقها وهدوئها المعتاد وصراحتها وقلبها النقي على عكس فوزية وذريتها بما يضمرن مِن حقد وكذب ولؤم.

– لقد آنستني صحبتك يا عمتي الطيبة.. إنني أرى فيك أمي المرحومة

فنظرت لها بصوت ضعيف:

– إني أرى عينيك تكـاد تـدمعان يا ابنتي.. دعي الحزن قليلا.. وتعالي نأكل سويا

ولم يكن الطعام لذيذا، لكنها أكلت منه لفرط جوعها وأنسها بالعجوز، وما كان إلا لقيمات مِن البطاطا المقلية، والبطاطا هنـا لا تفارق هذا البيت صيفا وشتاء، مع صحن مِن الطماطم المقطعة والخيار وبعض مِن الكرافس والريحان.

وقد تقبلت الوضع العام في حياتها الجديدة كما هو على مضض، لا شيء آخر بيدها لتفعله، فهي إن نامت تستيقظ مِن أحلام مفزعة، وتبقى مسهدة بقية الليلة حتى تكاد تشرق الشمس مِن خلف القصر، ولم تنم إلا وسنـات خاطفة، وشريف كل ليلة بعد أن ينزل عنها أو ينزلها عنه يغط في نـومٍ غريبٍ، لا مثيل له في شخيره العالي.

تلك حياتها الجديدة، مع بعض الضرب والتأديب بعصا شريف الذي يهابه الجميع هيبة خوف لا احترام، وليست هي ببعيدة عن تلك العصا إن أخطأت خطأ شجار مع فوزية وبناتها، أو خطأ تقاعس ونسيان لأعلاف المواشي والأغنام والحمار.

وعند العصر مِن كل يوم تجتمع البنات كلهن عند أمهن فوزية، ويتكلمن جميعهن في آن واحد، يتكلمن عن الزراعة والري والحصاد، ولا يخلو كلامهن

مِن المسِّ بزينب أو تدبير مؤامرة جديدة لطردها مِن البيت، وكأنَّ لحمها غدا طعامهن، ودموعها صارت شرابهن، تروي أفئدتهن الظمأى في الليالي الدامسة الفارغة.

وعلى غير العادة، جاءت العجوز ذات عصرٍ إلى هذه الجلسة ماسكة معصم زينب بيدها داخلتين عليهن، حيث أقنعتْ زينب وهي مترنحة في خطواتها ومتثاقلة بأن يشربن شاي العصر عند فوزية، ولما رأت فوزية عمتها العجوز أقبلت نحوها مرحبة بها وغير مبالية بزينب، لا هي ولا بناتها، وعند باب الغرفة همست فوزية للعجوز: (لماذا أتيتِ بهذا الكلبة إلى هنا يا عمتي؟)

فأظهر كلامها ما كان مخبوءا في قلبها، وسمعت زينب همس فوزية، فتلعثمت وتبخرت منها الحروف، وخفق قلبها وارتجفت، والوجوم يكسو هيئتها، كأنَّ جبلا حط على صدرها الرقيق، ولمحت الشر في عيونهن، لكنها آثرت الصمت، مختنقة الأنفاس، كانت تظن أنَّ الأمر سيتوقف عند هذا الحد، إلا أنَّ فوزية تمادت في التقليل مِن شأن زينب، ثم التعرض إلى أخلاقها، وأنها خطفت زوجها منها طمعا في ثروته بالاشتراك مع الأفعى السامة سليطة اللسان.

واحتدم الجدال بينهن، وتطور حتى كاد يصل إلى الضرب بالأيدي، غير أنَّ المقام لم يكن يسمح بذلك مِن قبلها، وذلك لأنها تشعر أنها وحيدة في وسط غابة الذئاب المتوحشة، وأخذها النشيج بعد أن سالت دموعها الحارة على خدودها الوردية الناعمة، وداهمها خوفٌ مرعبٌ، وهي متخمةٌ بالقلق مِن أن يحضر شريف فتنال عقابه.

وكان المساء، فعاد شريف مِن مزرعته وقد نفقت البقرة التي كان يولدها هناك، وكانت هذه البقرة أعز وأغلى عليه مِن زوجتيه وبناته، بل وأعز عليه حتى مِن نفسه، فوجدهن متشاحنات، كلٌّ تدعي الحق بجانبها، وهن يقسمن بأقدس الأيمان، وقد علت أصواتهن حتى وصلت إلى دار الضيافة الملاصقة للقصر، وكان عنده ضيوف مِن خارج القرية قد حضروا ليشتروا بعض الأغنام، فجمعهن وقرع رؤوسهن بعضها ببعض حتى سقطن أرضا.

وامتدت نحوها يده الغليظة بكلِّ قوة وحقارة، حتى انفلت شعرها الطويل الحريري لأول مرة رغما عنها، وصارت كالريشة بيديه يقلبها كيف يشاء، وهي تنظر بعين مصعوقة، ثم عاد إلى مجلس القوم عنده في دار الضيافة، وكأن شيئا لم يكن، كان يمازح الجميع، ويبتسم مع ذاك، ويسخر من هذا، ويصرخ مبتسما مِن أحد عماله.

ومازالت صرخات زينب مِن ألم الضرب يتردد صداها في قلب وروح العجوز، بعد أن امتدت أيادي شريف الغليظة إليها، وهي لأول مرة في حياتها تُضرَب وتهان كرامتها، أما فوزية فكان أمر الضرب طبيعيا لديها، فليست المرة الأولى، وهي متعودة على عجرفة شريف وانفعالاته الزائدة غير المبررة.

وقد بدا أنه ينظر إلى زينب كمجرد مؤنسة فراش، وليست حبيبة أو حتى زوجة أو جارية، لأنه ببساطة لا يعرف الحبَّ في الأصل، ولم ينكوِ بناره يوما ما، ولم تلفحه رياح الشوق، وهي لا تحبه، ولا تستلطفه، ولكنها لا تستطيع خيانته، وفي الوقت نفسه تريد التخلص منه بأي ثمن قبل

أن تنجب منه طفلا يربطها به طوال حياتها، غير أنَّ الزمان كان يخبىء لها شيئا آخر، ووقائع مزلزلة، في قصر الرجل الجاهل المستبد.

راحت زينب تروم الجلوس عند البئر في مساء يوم الخميس، وبجوار البئر حديقة غناء، ذات خضرة نضرة، مليئة بالنخيل والكروم، ثم وصلت إلى قن الدجاج، فوجدت الديك يقفز فوق دجاجاته الأربعة، واحدة تلو الأخرى، فقالت: (أنتَ كصاحبك لا تشبع)

وتركته مشغولا بحفلته الممتعة المثيرة، ما لها وهذا الديك أيضا؟!.. وصلت إلى حديقة البئر، وهي حديقة صغيرة حول البئر زرعها شريف، فيها أربع نخلات وشجرتان مِن التوت الأحمر، وشجرة مِن البرتقال، وشجرة تين عملاقة، وقد أنهكت جسدها وعقلها قبل أن تأتي إلى المكان بمهام شاقة كالرعي، وجلب الماء، وقطف المحاصيل الزراعية.

أحسَّت بالتعب والإعياء، فجلست تحت شجرة التين، وهي تلمس جذعها وتتحسسه، وتقرب أنفها مِن أوراقها، وتشم عطر الشجرة بحرارة صادقة، وغمرت نفسها في أعماق الشجرة، واسترخت، ثم اضطجعت وأطبقت أجفانها، ونامت ساعة، راحت خلالها تحلم بالماضي وأيامه الجميلة ولياليه البريئة أيام كانت في بيتهم بأحد أحياء بغداد.

الفصل الثالث عشر

صدح أذان الظهر مِن مسجد الحي، خرج أحمد مِن الحمام في يوم جمعة خريفي ذي نسائم عذبة، ثم توجَّه إلى المسجد لأداء الصلاة، وما تزال زوجته أحلام نائمة كطفلٍ رضيعٍ في سريرها هادئة هانئة.

وتكرَّر طرقُ البابِ مراتٍ عديدةٍ إلى أن فقدت سليطة اللسان أعصابها خوفا وهلعا على ابنتها، فقد صارت تخشى أن يكون قد حصل لها مكروه، فليس مِن عاداتها أن تنام إلى هذا الوقت مِن النهار، مدَّت رأسها مِن فوق الباب، ثم زعقت في صوت هائل مثل صرير ريح عاتية، حتى كادت حنجرتها تنفجر.

بعد قلق طويل خرجت أحلام مترنحة مِن أثر السهرة الحمراء في الليلة الماضية بأحضان زوجها، وقد ثقلت ساقاها، وألفيت لدى الباب أمها تجلس أمام باب الدار، فامتلأ صدر أمها بالسكون والراحة مع الغيظ، وقالت أحلام بابتسامة ماكرة:

- كنتُ مستغرقة في النوم يا أمي.. سامحيني

وبنظرة فاحصة لها مِن أسفلها إلى أعلاها قالت لها بعد أن جلست بالداخل:

– أوه يا كلبة.. إنَّ رائحة شعرك عطرة.. لابد أنَّ ليلتك كانت حافلة.. ولهذا بقيتِ نائمة إلى هـذه الساعة وتركتني على الباب

قالت ذلك وهي تضحك، ثم أردفت:

– أرجوك يا ربي أن تسامح لساني السليط.. فأنا عبدتك المسكينة.. أقـدر على كل شيء إلا لساني لا أقـدر عليه

فتعجبتْ أحلام لكلامها وقالت:

– فيكِ اليوم شيء مختلف عن قبل يا أمي

– وما هـو يا حـاذقـة؟

– لا أعـرف.. ولكن نظرات عيونك وطريقة كلامـك وأسئلتك فضحتكِ

– فقط أريد أن أتحدث معكِ يا سيدة هذا المنـزل بأمر ضروري ومصيري قبل أن يعود زوجكِ مِن المسجـد

– سيدة المنزل؟!.. هـذه نغمة جديـدة يا أمي.. ما الأمر؟!....

قاطعتها سليطة اللسان قائلـة باعتزاز وغطرسـة:

– ستكونين قريبا سيدة هـذا المنـزل أيتها الساذجة.. وسوف يسجل باسمكِ، وما عليكِ إلا سماع نصائحي ومخططاتي وإطاعة أوامري بالحرف الواحد.. وسترين ذلك في القـريب العـاجـل

- كيف؟!

رمقتها بنظرة احتقار، وأكملت تتكلم بثقة مألوفة:

- الظاهر أنك لا تعرفين عن الطموح شيئا

- أنا تحت أمرك يا أمي.. فقط دليني.. علميني

قامت سليطة اللسان مِن جلستها المعتادة، ووقفت على ساقيها وقالت:

- أريدك أن تتعلمي الدروس مِن هذه الحياة بدون أن تدفعي الثمن كما تعلمتها أنا

- أنا معكِ.. أكملي

- دمي يفور والأفكار تجول في رأسي ليل نهار مِن حرصي الزائد عليكِ أيتها النائمة الخاوية مِن الذكاء

- يا أمي لا تقولي ذلك.. أنا ابنتك وزرع يديكِ

- أيتها الغبية.. سأقول لكِ كلمات.. احفظيها جيدا

- سأحفظها تماما.. لكن هيا قولي

- كثيرا ما كنتُ أفكر في خلواتي بمستقبلكِ ومستقبل أطفالكِ.. أحلم بأن يكون لكِ منزل خاص بكِ لا يشاركِ أحد فيه.....

- هذا كلام جميل

- لا تقاطعيني أيتها الحمقاء

- حاضر

- لذلك عقدتُ النيـة على شراء هذا المنزل لكِ وحـدكِ.. فماذا تقولين؟

تبسَّمت أحلام وفرحت بكلام أمها، وسألتها:

- لكن كيف يتحقق هذا الحلم الجميل يا أمي؟

- ليس حلما يا غبية.. إنه واقع قريب

- ألم تقولي بأنكِ كنتِ تحلمين بمنزل خاص لي؟!

- أنا أقول إنه حلم.. أنتِ لا

- حاضر أنا آسفة

- سنشتري حصص البنـتين زينب وأسماء.. ونشتري حصة علي.. وسيكون التسجيل باسمكِ في دائرة التسجيل العقـاري

قالت أحلام في تردد:

- أنتِ متفائلة جدا يا أمي

- جدا جدا

وعلت قهقهات أحلام:

- لكن مَن قال لكِ إنهم سيوافقون على بيع بيتهـم؟

- ولماذا لا يبيعونه وقـد انتهى تقريبا كل رابط يربـطهم بالبيت؟

وصمتا قليلا وملامح الدهشة مرتسمة على وجه أحلام:

- وكيف سيتم ذلك يا أمي؟

- عفوك يا ربي ورحمتك.. هذه البنت ستقتلني ببلادتها

وضحكت أحلام كثيرا، فأكملت أمها:

- علي هاجر ولن يعود إلى العـراق نهائيا.. فما حاجته إلى هذا البيت؟.. وأسماء متزوجة ولديها زوج وأطفال وهي أحوج إلى أي مال زائد لتعين زوجهـا.. وأنا أعتقد أنها متلهفة لتأخـذ حصتها مِن الميراث اليـوم قبل الغـد.. وعلي أيضا كذلك.. أما زينب فموضوعها بسيط جـدا وأنتَ أدرى بأنه لا حيلة لها.. فإن امتنعت نحرك عليها خالك المتوحش أو ماضيها المخجل

- فعلا والله

وابتسمت سليطة اللسان ابتسامات خبيثة ماكرة وأردفت:

- يابنتي الغبية.. هذا العالـم عبارة عن غـابـة موحشة.. القوي الذكي يـأكل فيها الضعيف الغبي.. عليكِ أن تكوني مثلي

- كيف أكون مثلكِ؟!.. أنتِ جبارة

- وأنتِ حمقاء

- لستُ حمقاء.. فقط أخبريني بالمطلوب مني وسترين

- عليكِ أن تقنعـي زوجكِ بهـذا الأمـر على أنكِ تريدين تأمين مستقبلكِ ومستقبل أطفالكِ.. افتحي معه الموضوع عندما تكونين على السرير مرتدية فستان النوم الشفاف ومتزينة بأنواع الزينة البراقـة.. أنتِ تفهمين ما أقصده

- لكن يا أمي العزيزة هلا سألتِ نفسكِ الطموحة تلك مِن أين نأتي بالأموال لشراء البيت؟.. إنَّ مساحته كبيرة

- أنتِ أقنعي زوجك بالفكرة أولا.. ثم ما المشكلة في أن تبيعي ذهبك لنكمل ثمنه؟

- لا مشكلة يا أمي

ونهضت سليطة اللسان مِن رقدتها قائلة:

- أقسم أنني لن أدع أحدا غيركِ يملكه

وأضاءت وجه أحلام ابتسامة عريضة، وراحت الأفكار تجول في رأسها والأحلام ترقص فرحا في مخيلتها الواسعة وهي تتخيل أطفالها يلعبون ويمرحون في حديقة المنزل الكبيرة.. هذا شأن النساء دائما في كل مكان وفي كل زمان.

وعند الباب استوقفتها أحلام:

- هل تعتقدين أنَّ أحمد سيوافق يا أمي؟

أجابتها بكلمات ونظرات رحيمة على غير طبيعتها فأراحتها:

- زوجك رجل طيب.. لم يرفض لكِ أي طلب يوما

وعاد أحمد مِن الجامع إلى البيت، فطلب طعام الغداء، ثم طلب الشاي، فأتت به أحلام .. وضعته وجلست بجواره قائلة بلسان معسول:

– يا زوجي العزيز.. لم يبقَ إلا أنا وأنتَ في المنزل.. والجميع قد شقوا طريقهم في الحيـاة بعيدا عنا.. وصارت لهم منازل يعيشون فيها.. ما رأيك أن يكون هذا المنزل لنـا وحـدنا؟

نظر لها أحمد باستغراب ثم قال:

– وكيف يكون ذلك الأمـر؟!

فمالت عليه بدلال، وأمالت جسمها وصدرها نحوه حتى التصقت به:

– أفكر في أن نشتري نصيب إخوتك.. وأن نسجل البيت باسمك وحدك في دائرة التسجيل العقاري لنعيش به مطمئنين

– مِن أين لك هذا الكلام؟.. هذا ليس كلامك أكيد

– أمي كانت هنا.. واقترحت عليَّ ذلك....

قاطعها مباشرة:

– قد تخطت أمك حدودها هذه المرة.. كيف تسمحين لها بالتدخل في حياتنا إلى هذه الدرجة؟.. كيف تسمحين لها أن تتدخل بعلاقتي مع إخوتي؟

طعنتها الجملة الأخيرة بقلبها طعنا، فنهضت من جلستها بجانبه غاضبة دون أن تنبس بكلمة، وقد تكدرت روحها، ولم تشأ أن تجادله في هذا الموضوع أكثر من ذلك حتى يهدأ.

ونهض هو الآخر ممتعضا، وقـد عقد حاجبيه، وغلب عليه الاكتئاب، ثم انتابه شعور الحنين لأخوته، أسماء وأطفالها، زينب وحالها مع الزمن هناك في

القرية، وعلي الذي تزوج خلسة في البصرة، ثم هاجر إلى الخارج، ولم يعرف أين أراضيه بعد.

ومرَّت لحظاتٌ خاطفةٌ وكأنها جبالٌ جثمت على صدره، وهو يتأمل حاله وأحوالهم، وهذا الانعطاف السريع لحياتهم بعيدا عن بعضهم، فينظر إلى السماء البعيدة الممتدة نهاية البصر شارد الذهن لعله يلمح على صفحاتها وجوه أخوته مِن أماكنهم، فيشعر ببعض الراحة.

ودخل إلى داخل البيت، ثم إلى غرفته، وما إن رأى أحلام حتى قال لها:

- إنَّ أمكِ تؤجج نـار الفتنـة

نظرت إليـه بعينين يملؤهمـا الأسى، حتى إنها لم تتمالك نفسها، وبدأت دموعها بالجريـان على خديها، وكأنها عيون ماء جارية على سفح جبل مِن المرمر، فرآها هكذا فرقَّ لها، وهمست له نفسه باحتضانها وتقبيلها، فأشاحت بوجهها عنه، وظلَّت صامتة لبرهة ثم قالت بوهن:

- لِمَ تسارع دائما باتهام أمي المسكينة وتسبها وتنفجر بوجهي بلا سبب؟

- جففي دموعك يا أحلام.. أمكِ تجرني دائما إلى الإساءة لها بسبب أفعالها

- أنا لم أعـد قادرة على سماع المزيد مِن ألفاظك النابية بحق أمي.. أشعر بصدري يتمزق وأنا أسمعك تتكلم عن أمي بسوء.. هي لم ترتكب أية جريمة بحقك أو بحق أخوتك.. إنها بكل بساطة تود أن يكون لنا بيت مستقل.. حالنا كحال أخوتك

ثم أجهشت بالبكاء والنشيج، وكأنَّ السماء انطبقت على الأرض وسط حيرة وذهول أحمد، وهو لا يعرف ماذا حدث ليصيبها كل ذلك، فقام مِن فوره واحتضنها، وربت على كتفها، فأشاحت بوجهها عنها، وكلما اقترب منها ابتعدت عنه بدلالٍ وذكاء.

وقضيا النصف الأول مِن الليل يتحدثان بأمر واحد، وهو كيف يفاتح أخوته بهذا الموضوع، وهو لا يريد أن يخسر أخوته، وعن أحلام، فأحلامها مشروعة، وليست عيبا أو حراما أو حمقا، إذن ما العمل؟.. رأى أنَّ مخرجه هو أن يجمعهم جميعا ليحادثهم في الأمر.. ولكن كيف يكون ذلك؟

ومضت الأيام التاليات، وفي صباح يوم جمعة حضرت أسماء وزوجها، ومِن ثم حضرت زينب ومعها سليطة اللسان إلى بيت الأهل، وبدأ أحمد الكلام بخصوص رغبته في شراء البيت، وإعطاء كل ذي حق حقه، فأبدت سليطة اللسان إعجابها بحكمة وعدالة صهرها وكأنها لا تعلم عن هذا الموضوع شيئا.. قالت بثقة مألوفة:

- الأفضل أن تأخذوا رأي علي أيضا

- لقد اتصل أحمد أمس به يا أمي.. وقد تنازل عن نصيبه في البيت لأحمد.. وهو يبلغ تحياته للجميع.. ويسلم عليكِ يا زينب كثيرا.. وهو سعيد بالحياة في أمريكا مع زوجته

فنظرت أسماء لزينب وقالت:

- هو حر يتنازل كما يريد.. لكني وزينب لن نتنازل.. نحتاج المال

- طبعا يا أختي.. لا يمكن أن أظلمكما أبدا.. اطمئنا

- ومتى سنحصل على حقنا؟

- غدا إن أردتما

- أنا موافقة

ونظرت سليطة اللسان لزينب، فسارعت زينب قائلة:

- وأنا موافقة

***

الفصل الرابع عشر

في المساء أحسَّت زينب بصداع شديدٍ، اتضح فيما بعد أنه ليس الصداع المعروف المؤقت، بل إنه مرض الشَّقيقة الذي يصيب الرأس المتعب المليء بالأفكار والهواجس، وكانت مِن مسببات هذا الصداع القهر، إلى جانب الحرمان مِن العطف والحنان، وعدم الاهتمام، والمصير المجهول وغموض المستقبل، وحياة القرية القاحلة وسذاجتها المملة، والملل اليومي الدائم عند حلول المساء، ثم إنها لم تستمتع بأنوثتها مِن خلال هذا الزواج كسائر الفتيات.

وصار على لسانها جملة قد صارت ترددها دائما لأي أحد بعد أن صار البيت لأحمد وحده: (الآن اكتمل شقائي فصرت يتيمة الملجأ والملاذ بعد أن كنتُ فقط يتيمة الأب والأم)

وجاءتها العجوز تتخبط في مشيتها كعادتها، حاملة بيدها اليمنى عصاها تتوكأ عليها وبيدها اليسرى تحمل عنقودا كبيرا مِن العنب كان شريف قد قطفه لها، فنهضت زينب تستقبلها، وبيديها روايةٌ جلبتها ضمن ما جلبت مِن منزلهم حين أفرغته مِن كلِّ شيء لها هناك .. قالت العجوز:

– أبارك لكِ استلام نصيبك مِن الميراث يا زوجة ابني.. لقد فرحتُ لكِ كثيرا.. إنكِ تستحقين كل خير

– أشكركِ يا عمتي؟

وجلستْ العجوز، وتربعتْ في جلستها، ثم بدأت تحكي لها عما جرى بينها وابنها شريف عندما كانت زينب في بيت المدينة، وأنها طالبته بأن يحسن معاملتها، وكيف أنه ظالم مستبد طاغ، ولا بد أن يقف عند حدود الله فلا يظلمها، وبكيت زينب قائلة:

– أشكرك لوقوفك بجانبي.. أنا لا أطلب منه غير أن يعلم أني زوجته.. ولست فلاحة أعمل في أرضه وحقوله أو بقرة يعاشرها لتجلب له الولد

– لا ضير يا ابنتي مِن العمل في الحقل.. فالجميع هنا يعمل.. لكن حقك أن يعاملك كإنسانة ابنة أصول ولك حقوق.....

وقاطعتها زينب:

– عن أصولي يا عمتي فقد ضاعت مع تفريطي في بيت أهلي

– لا تقولي ذلك يا زينب

– بل أقول

وفتحت زينب صفحةً بالرواية التي بيدها، وقالت للعجوز:

– في هذه الرواية الرائعة يقول كاتبها رضا الحمد "نحن البشر نجتث جذورنا بأيدينا يوم نبيع بيوت آبائنا وأجدادنا، فنصبح مثل نبت الصحراء ليس لنا صاحب، ومثل الطيور المهاجرة يصيدنا كلُّ جائع"

- ما هذا الكلام الجميل؟!

- كل كتاباته هكذا رائعة

- والله إني أحسد مَن يعرفون القراءة

فابتسمت زينب ابتسامة غامرة، وقالت:

- تعالي كلَّ يوم لي.. وسأقرأ عليكِ منها الكثير

- أرجو ذلك يابنتي.. فالكتب هي حياة مَن لا حياة له

وصمتت زينب قليلا ثم قالت:

- كنتُ أتمنى لو كان شريف يعرف القراءة والكتابة حتى يشاركني وأشاركه هذه الحياة الرائعة

- إنه متخلف جاهل.. لكن اصبري.. فلن أكف عن أن أجعله يُحسِن إليكِ

- صبرتُ ولم أجد غيرك يعطف عليَّ.. وأيضا فهناك الحمار.. أظنه يواسيني كلما ذهبت بالعلف له

فضحكت العجوز، وقالت مازحة:

- يكفيكِ الآن أنا والحمار.. ربما قريبا تملكين الحظيرة كلها

ومرَّت الأيام خلف الأيام على زواجها حتى صارت شهورا، ثم جاء يومٌ كان الجو فيه باردا والسماء صافية، أكلت طعامها، ثم قذفه جوفها إلى خارجه، مع إحساسها بتقلصات في بطنها وألم شديد، ودارت بها الأرض

قليلا على نوبات متفرقة، فأسرعت إلى العجوز تخبرها، ففرحت العجوز مستبشرةً فرحا شديدا وهي تسمع الكلمات تخرج مِن فمها، ثم لم تتمالك نفسها، فأطلقت الزغاريد على ضعفها وهي تردد: (أنتِ حامل.. أنتِ حامل)

ولم تدرِ زينب بحالها، هل تحزن أم تفرح؟.. إنها لا تعرف ماذا تريد.. فهي تريد التحرر منه، وفي الوقت نفسه تطمح بطفلٍ يملأ حياتها الفارغة التي لا معنى لها، ولعله يغير طباع والده شريف للأفضل.

وصار هاجسُ الخوفِ مِن فوزية وبناتها ينتابها فلا يفارقها إلا نادرا، وتعتقد أنهن سيرتبن لها أمرا ما لإسقاط طفلها الحبيب، لكن زوجها شريف طمأنها بأنَّ فوزية أجبن مِن أن تمسَّها أو تمسَّ طفله بسوء.

قال ذلك وسط فرحته الغامرة حين أخبرته عن حملها، حتى إنه للمرة الأولى يُقبِّلها بعيدا عن السرير، وكاد أن يتحوَّل مِن فيلٍ ضخم إلى طائرٍ خفيفٍ بجناحين، وأمرها بعدم إرهاق نفسها في أي عملٍ حتى تأتِّيه بطفله.

وصارت تشم روائح غريبة كرائحة مسحوق الغسيل، ورائحة المشمش، ورائحة الكباب المشوي على الفحم مع البصل والثوم، حتى إنها اشتهت في إحدى الليالي أن تقضم أذن شريف وتأكلها، ليس مِن فرط الغل والكراهية، لكنها كانت بداية الوحم.

وعند طبيب المدينة البعيدة عن القرية كانت المرة الوحيدة على مدار حملها التي أخذها شريف لطبيب النساء حتى يعلم نوع الجنين.. شرع الطبيب ينظر في جهازه على عجل، ثم أخبره بنوع الجنين، فنهض شريف، ورقص رقصا

حقيقيا بجسمه جسم الفيل دون خجل عندما سمع منه بأنَّ الجنينَ الذي في بطن زوجته هو على الأرجح ولد.. ثم سأله:

- هل أنتَ متأكد؟

- ليس تماما

- ومتى تتأكد؟

- لو جئتني بها بعد شهر.. سأخبركما بالخبر اليقين

- لكنه على الأرجح ولد.. أنتَ قلتَ ذلك

- أجل.. أجل ولد

ولم يذهب له شريف بعد ذلك، وعاش ينتظر مرور شهور الحمل لتفرغ له زينب هذا الولد، وريث أملاكه، وناقل اسمه إلى الأحفاد، ولعله خاف أن يعود مرة ثانية للطبيب، فيخبره بأنَّ ببطنها بنتا، لذلك آثر راحة قلبه.

ومع أول شعاع للشمسِ الدافئةِ خرج شريف إلى حقوله وغنماته الجوعى كصاحبها الجائع لأبنه المنتظَر، بينما هي قد أخذتها نومةٌ تشبه الإغماءة لفرط السهر والقلق والحمل المتعب، وبعد نهوضها مِن نومها جاءتها عمتها العجوز، فاقترحت عليها أن يأخذها شريف إلى أحد المشايخ ليصنع لها حجابا يحفظها ويحفظ ولدهما مِن الوساوس والشياطين والجن والمردة وكل شيء خبيث حسب اعتقادها، وحسب ما يعتقده عوام الناس في القرى، وفي المدن أيضا، أو ليذهب بها إلى الأضرحة، أو أحد الشيوخ لتحلَّ عليها بركةُ الأولياء الصالحين.

وبالفعل عند بزوغ الفجر التالي أخذها شريف بصحبة إحدى بناته إلى أحد المشايخ وهو يبتهل إلى الله طول الطريق أن يحفظها الله سليمة حتى تأتي له بابنه، أما زينب فكان قلبها يضطرب كلما اقترب موعد الولادة، وتزداد دقاته وكأنها مطارق تطرق في جدار قلبها، وهي مثل زوجها وأمه ترجو إنجاب الولد، ليكون سندها ونصيرها في معترك الحياة.

وتمضي الأيام مسرعة حتى وصلت شهرها الثامن للحمل، وحيث صارت مثل الراهبة الناسكة المعتكفة في صومعة الديـر، لا تفعل غير الخشوع والتسبيح والدعاء، وتلوذ بالصمت دائما على نحو مريب، وتتعمَّد أن تغيب عن عيني فوزية وبناتها، لأنها كلما صادفتها نظرتْ لها بعين الحسد والحقد والكراهية، فهي توقن أنَّ الولد القادم سيملأُ سماءَ شريف وقلبه بالأمل المفقود، وربما الحب الحقيقي لزينب.

وقبل نهاية الشهر التاسع ببضعة أيام، وعند الضياء الأول مِن فجر يوم سبتٍ، حانت اللحظة المرتقبة للجميع، حيث صحت مِن النوم على وجع غريب وهي ترتجف مثل سعفة نخيل في ليلة شتاء باردة، وشيئا فشيئا أدركت أنها ستلد في هذا اليوم وفي هذه الساعة، وبخطواتٍ حذرة مؤلمة أيقظت شريف وأخبرته، فأمرها أن ترتدي ثوبها المعلق المزين بأشكال الورود الحمراء والبنفسجية، وتتهيأ لاستقبال الداية.

شعرت بسعادة وخوف وحيرة في اللحظة ذاتها، وازداد ألم المخاض أكثر وأكثر وهي تصيح بصرخاتٍ تشكو بها آهات ودموع وأوجاع ونكبات

زمنها الظالم لها قبل آلام المخاض، ثم تاهت عن الوعي برهة، ثم استفاقت وأبصرت على صوتِ بكاء حصيلة تسعة أشهرفي بطنها.

طفلةٌ جميلةٌ ظلَّت تبكي الدنيا التي جاءت لها، وتبكي قدر أمها تحت هذا الزوج الظالم الجاهل، فما إن أخبرته الداية بالبنت حتى اسودَّ وجهه، وضاقت عليه حياته، وصارت زينب له شيطانة آثمة، وكأنها جاءته بلقيطة.

وأصدر الجاهل أمره فورا بأن تغيب زينب بوليدتها عن عينه حتى يرى أمره فيهما، فتخرج مِن القصر، وتسكن بها الغرفة الطينية التي كانت تسكنها الخادمة قبل أن تقتلها الأفعى بها.

ولما علمت الأم العجوز بما فعل ابنها زجرته، وأسرعت إلى زينب لترجعها إلى القصر، فرفضت، وألحَّت عليها لكن دون جدوى، فصرخت بها:

- كيف ستعيشين هنا؟!.. هنا مكان خطر عليكِ وعلى ابنتك

فقالت زينب جامدةً دون أن تبكي وكأنما قد أصابها جنونٌ:

- فقط خذوا ابنتي للقصر

- وأنتِ؟.. ماذا ستفعلين هنا وحدكِ في هذه الحجرة؟!

- لا شيء.. فقط سأنتظر الأفعى

[تمَّت بحمد الله]

ساجد السامرائي